مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

رجب 1438 هـ – أبريل 2017م

• «الإصلاح البروتستانتي في أوروبا»
• لوتشيا فيليتشي

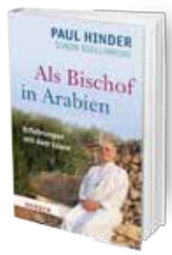

• «أسقف في شبه الجزيرة العربية»
• باول هندر

• «صغار يصعب السيطرة عليهم»
• أوه إن يونغ

• «أسرار فولغا بلغاريا»
• يوري سوبرينينكو

• «الموجة الثالثة من الاحتجاج»
• إيلى فوده، وأوين وينكلر

• «اليورو ومعركة الأفكار»
• مجموعة مؤلفين

• «سجن النسوية»
• سيرين أدلبي السباعي

• «سلم إلى السماء»
• ميخائيل خازين وسيرغي شيغلوف

• «العالم الجديد»
• مارسيل غوشيه

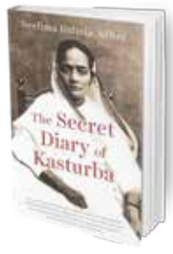

• «مذكرات كاستوربا الغاندي السرية»
• نيليما داليا

• «الجنة الآن: قصة اليوتوبيا الأميركية»
• كريس جانينغ

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الأطروحات العلمية المُهمّة التي أنجزها العمانيون في الخارج، رسالة دكتوراه بعنوان «التَّرْجَمَةُ وتوظيفُها في تدريس الشِّعْر: دراسةٌ تنظيريّة، مع تطبيقها في عُمَان»، قدمها الدكتور خالد بن محمد البلوشي لجامعة نوتينجهام في بريطانيا، سنة ٢٠٠٧.

يُؤكّد الباحثُ في مُلخّص دراسته أنَّ التَّرْجمة أُهْمِلتْ في التدريس رَدْحًا من الزمن، دون سبب مُقنع، إلا قرارًا من الطريقة المُتوارَثة في الترجَمة النَّحْويّة. ورغم نداءات بعض الأكاديميين بتوظيف الترجمة في مَجَال التَّعليم، فإنَّ إمكانيّاتها لم تُستكشفْ بعْدَ. ويُشير الباحث إلى أنَّ أطروحتَه تَسْبِرُ دَوْرَ الترجمة في تدريس الشِّعْر الإنجليزي. واعتمادا على النظريات المتصلة بالأدب والترجمة، يُجادلُ الباحثُ بأنّ الترجمةَ تُخْلخلُ النظامَ اللغويَّ الفريدَ للشِّعْر، وتُضيّقُ واسعا غيرَ مُحَدَّد أساسا؛ ومن هنا فإنها تُؤثّر في خَصيصَة التباين التأويلي للشِّعْر. ويرى أيضا أنه من خلال توجيه انتباه الطُّلاب إلى أوْجُه القصور في الترجمة، يُمكنُ توعيتُهم بخطَاب الشِّعْر. ولتوضيح النقاش، قام الباحث بوضع بعض القَصائد الإنجليزية مع تَرجماتها العربية للمُقارنة.

في الجزء الأوّل، درس الباحثُ مدى إهمال الترجمة في بعض المناهج الرئيسة لتدريس اللغة والأدب، وفي الجزء الثاني، ناقشَ النظريات المتصلة بالأدب والترجمة؛ لوَضْع إطار تربويٍّ مُقارَن. وإيماناً منه بأنّ النظريةَ والتطبيقَ في علمِ التربية لا ينفصلان، بل يجبُ أن يعتمدَ أحدُهما على الآخر، سعى إلى استكشاف النتائج العملية الناجمة عن توظيف الترجمة. وعليه، قام بتدريس مَسَاق، في عُمانَ، حول الأسلوبيّة المُرتكزة على الترجمة، وقد استعرض مضامينَه في الجزءِ الثالث. و في الجزء الرابع، عرض الباحثُ حُزْمةً من الأنشطة القائمة على الترجمة، والتي بناها على سَبْره للإمكانيّات التربوية للترجمة تنظيريًّا وتطبيقيًّا. كما أنّه اقترحَ أيضًا، في هذا الجزء، أنشطةً مُختلفة مثلَ مقارَنة قصيدة باللغة الإنجليزية بترجماتها المتعدّدة أو بترجماتَ نَثْريّةً لها. وأخيرًا، أكّد الباحث على أنَّ الترجمة يُمكنَ أن تُوفّرَ فُرَصاً رائعةً للتعلّم، وتساعدَنا في تجاوز مشكلة الاستخدام الآلي للغة الإنجليزية، وتُصحّحَ المفهومَ الضيّق لـ «اللغة الأم»، وتكونَ بمثابة عامل تَحْفيزي.

وفي ملاحظاته الختاميّة، أكّدَ الدكتور خالد أنّه تعليقا على ما أشار إليه (هاوتَ) من أن «مُمارسة الترجمة قد أُدينتْ بشدة لفترة طويلة دون أسباب مُقْنعة؛ ولهذا ربّما حَان الوقتُ لأنْ نعيدَ النظرَ في هذه المِهْنة»، ذَكر (كوك) أنه «ونحنُ نقتربُ من القرْن الجديد، من المأمول أن تَتحقّقَ هذه النُّبوءةُ بنهضة الترجمةَ في تعليم اللغة». وعليه، اعتمادًا على النظريات المتّصلة بالترجَمة والشِّعْر والأدب في تدريس اللغة الإنجليزية، فإنّه يأملُ أن تُسْهمَ أطروحتُه، هذه، في تَعزيز قضية الترجمة بصفتها مَصْدرًا تَعْليميًّا.

hilalalhajri@hotmail.com

الإصلاح البروتستانتي في أوروبا خلال القرن السادس عشر لوتشيا فيليتشي

عز الدين عناية *

بحلول شهر أكتوبر من العام الجاري تكون قد انقضت خمسة قرون على وجه التحديد منذ انطلاق حركة الإصلاح البروتستانتي الهائلة في أكتوبر ١٥١٧م، وذلك عقب تعليق احتجاجات الراهب مارتن لوثر الخمسة والتسعين على باب كاتدرائية ويتنبيرغ. فقد خلّف ذلك الحدث صدى واسعا في الأوساط الكَنَسيّة ولدى الشرائح الاجتماعية على حدّ سواء، وانعكسَ تحولاً جذريا في القارة الأوروبية، امتدّت آثاره إلى كافة أرجاء العالم الغربي. فما كان احتجاج لوثر أمراً دينياً، محصورا في جوانب لاهوتية مسيحية فحسب، بل كان ثورة «إيتيقية اجتماعية» أيضًا، تخلّلها بعدٌ حداثيٌّ بارز، أثّر في مسارات الإنسان الغربي. بما أضفاه من موجة إصلاح لأوضاع دينية متردّية، ومن تحوير جذري لمسار أوروبا، انعكست أبعاده على مجريات التاريخ العالمي أيضاً. فعلى إثر الموجة العارمة من الاحتجاجات، نشأت في الغرب كنائس ودولٌ وأفكارٌ وقيم جديدة، غيّرت بشكل فاعل إطار المجتمعات المسيحية المعهود، ودشّنت مسارا جديدا باتجاه العصر الحديث. ما كان ذلك التحوّل يسيرا ولا خاطفًا، بل جاء عسيرا وطويلا، تخلّلته حروب مُدمّرة وانتهاكات فظيعة وفتن متتالية، غير أنّ بوصلة الإصلاح ما حادت عن هدفها المنشود، رغم العراقيل المتنوعة، لتسيرَ صوب إرساء الحرية وترسيخ التسامح وعلْمَنة الدولة والمجتمع. يحاول هذا المؤلف إعادة بناء تلك المخاضات الإصلاحية فكريا وسياسيًا، مبرزا الأوجه العقدية والأيديولوجية التي شكلت حاضنة ذلك التحول، مع تقديم إطار عام وشامل للإصلاح البروتستانتي بكافة رجالاته وتياراته التي رافقت لوثر وكالفن وزونجلي ومونتزر. كما يُولي عناية للجانب الإيطالي في المسألة، رغم وقوف روما خصماً عنيدا للإصلاح، لم تدّخر فيه الكنيسة جُهدا لاجتثاثه والانحراف به، عمادها في ذلك حملة مناهضة، عرفت في تاريخ الكنيسة بحركة «الإصلاح المضاد». إذ صحيح أنَّ دولة الكنيسة تحضر قوة نافذة في الفضاء الإيطالي، ولكن هيمنتها تشمل كافة أوروبا الغربية تقريباً، ليحضر حبرُ الكنيسة الأعظم بمثابة ملك الملوك الأرضي.

والجلي أن بحث البابوية عن تنفّذ في الأوساط السياسية قديمٌ، وقد انطلق منذ أواخر القرن الحادي عشر مع اعتلاء البابا غريغوريوس السابع سدة بطرس سنة ١٠٧٥م، وتدعّم ذلك في القرنين اللاحقين مع أحبار الكنيسة غريغوريوس السابع وإينوسنت الثالث وبونيفاس الثامن، بجمع السيفين (السلطة الزمنية والسلطة الروحية) في غمد واحد. إذ ما كانت لتلك الصياغة التي صاغها أحد أبرز آباء الكنيسة سيبريان القرطاجي – لا خلاص خارج الكنيسة» (extra Ecclesia nulla salus) دلالةٌ دينيةٌ فحسب، بل دلالة سياسية أيضا، ناهيك عمّا منحه توما الأكويني بعمله اللاهوتي المحوري «الخلاصة اللاهوتية» من أرضية صلبة لكنيسة روما، أكسَبت البابا دعامة قوية.

الكتاب الذي نعرضه هو من تأليف لوتشيا فيليتشي، أستاذة التاريخ الحديث بجامعة فلورنسا الإيطالية، التي سبق لها أن نشرت العديد من الأبحاث حول الإصلاح البروتستانتي وحول مسألة التسامح في القرن السادس عشر. نذكر من بينها: «نبوّات الإصلاح وأفكار الوفاق الديني» (٢٠٠٩)؛ «جان كالفن وإيطاليا» (٢٠١٠)؛ «الإصلاح الجذري في أوروبا خلال القرن السادس عشر» (٢٠١٢).

تُقسّم الكاتبة مؤلفَها إلى أربعة أقسام، مستعرضةً في القسم الأول مختلف إرهاصات الاحتجاج المبكرة، التي دبّت في مختلف البلدان الأوروبية ضدّ سائر أشكال الفساد والانحراف والزيغ التي تنخر الكنيسة، مُطلقةً عليها «روما البابلية»، لما تحوزه مدينة الشرق القديم بابل في المخيال المسيحي الغربي من رمزية مدنّسة مقابل أورشليم المدينة المقدّسة، وهو تصوّرٌ قديمٌ مستوحى من التوراة، حاول لوثر توظيفه عبر رسالة شهيرة صاغها إبان استفحال الصراع مع كنيسة روما بعنوان: «شرور الكنيسة البابلية» (١٥٢٠-١٥٢١م). ونصُّ لوثر في الأصل مدوّنٌ باللاتينية، تخطّى فيه صاحبه حدود الخطاب الموجه لرجال الدين، من إكليروس وكهنة، إلى معالجة قضايا على صلة بالإصلاح الطقسي وأسرار الكنيسة ليعرضَ طروحات تحوّر من مهام كنيسة روما برمّتها. ويمثّل استغلال رمزية روما-بابل من قبل الدعاية البروتستانتية محوراً أساسيا في استراتيجية الاحتجاج.

في القسم الثاني من الكتاب المعنوَن بـ«لوثر من الاحتجاج إلى بناء الكنيسة» يلوح جليا مدى اتساع حركة الإصلاح، رغم أنها بدت شبه معزولة في البدء. فقد سرت دعوة لوثر في كافة شرائح المجتمع الألماني لتعدُّد مضامينها الدينية والمدنية على حد سواء. وكما لقيت حظوة في أوساط اللائكيين بحثّها على الإصلاح الاجتماعي، لقيت بالمثل ترحيبا في أوساط طائفة من رجال الدين أيضا، ممن تطلّعوا إلى التسيير الروحي المستقلّ عن هيمنة المركز في روما. إذ سرعان ما وجدت دعوة لوثر هوى لدى الأمراء الألمان ممن أثقل كاهلهم الرضوخ القسري لروما، ليمثّل الإصلاح بالنسبة إليهم فرصة للتحرر السياسي والمالي. حيث شكّل العامل الاقتصادي عنصرا حاسما في تشجيع الأمراء الألمان حينها لموالاة لوثر ومناصرته. ومثّلت دعوات التحرر من هيمنة البابا فرصة سانحة للدول والإمارات الأوروبية للتخلص من وصاية كنيسة روما، وبالمثل أملا واعدا لتحقيق الاستقلال والتخلص من هياكل النظام الإقطاعي البالية والتحول باتجاه أشكال حديثة.

فقد وَجدَ ذلك التحالف الجلي للوثر مع المناهضين السياسيين للكنيسة صدى في رسالته: «الأمة الألمانية وسموّ الرسالة المسيحية بقصد الرقي بأوضاع المسيحية»، وهي عبارة عن نداء للإمبراطور والأمراء والنبلاء الألمان لترسيخ سلطاتهم المدنية وموالاة الإصلاح بما يتجاوز الولاء للكرسي البابوي. وبالمثل في رسالة أخرى بعنوان: «حول حرية المسيحي» (١٥٢٠-١٥٢١م)، وهي عبارة عن معالجة لمسألة الحرية من زوايا دينية ومدنية، حاول لوثر ملامسة مشاغل المسيحي الأوروبي الحقيقية من خلالها. إذ ما كان للوثر أن يحقق نجاحًا مظفراً لولا تحالف اللائكيين والأمراء الألمان معه، فقد كان

كلاهما يسعى لترسيخ استقلالية على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

وفي قسم ثالث بعنوان «مسالك أخرى نحو الإصلاح» تطرّقت الكاتبة لوتشيا فيليتشي إلى توسع حركة الإصلاح، التي شملت شخصيات كثيرة إلى جانب بروز وسائل جديدة في ترويج الأفكار ما كانت معهودة، مثل الصحافة والطباعة. فمن جانب فسح المسار الذي دشّنه لوثر الطريق أمام زعامات إصلاحية أخرى في أوروبا، بدا ذلك جليا مع جان كالفن في سويسرا، وهو الذي شهد العمل الإصلاحي معه طورا لم يعهده رفاقه. فقد كان تأثير كالفن على مستوى أوروبي لافتا، ليمتدّ لاحقا إلى أطراف العالم الجديد. في ذلك العهد كانت جينيف، مدينة كالفن الأثيرة، معقلاً للاجئين والمغتربين والكتّاب والسياسيين من كافة أصقاع أوروبا، من فرنسا والبلاد المنخفضة وأسكتلندا وإنجلترا ومن شرق أوروبا ومن بوهيميا ومن المجر ومن بولونيا، ما سنحَ لدعوته بالرواج على نطاق واسع والتواصل مع فضاءات نائية ما كانت متاحة لمصلحين آخرين. ومن جانب آخر، وعلى خلاف منهج لوثر في الإصلاح، تركّز عمل زونجلي بالأساس في الجانب الطقسي وألحّ على إدخال تحويرات جذرية على مستوى الشعائر والأسرار وأنظمة الكهانة. جعل ذلك التنوع بين رجالات الإصلاح حركة الاحتجاج شاملة في أوروبا، وما انحصرت بالشأن الديني تحديدا، بما مسّ مفاهيم العمل والزمن والمجال الديني والمجال المدني والمسائل الجنسية وغيرها.

وفي جانب توظيف المبتكرات الجديدة لترويج رسالة الإصلاح، بدا ذلك حاسما وفاعلا مع مجال الطباعة، وهو من أبرز المجالات التي تسلّطت عليها الرقابة الكنسية في روما. حيث مثّل فنّ الطباعة الناشئ مسرح نزاع بين مروّجيه ومستغلّيه من جانب، ورجالات الرقابة الموكلين من قبل الإكليروس من جانب آخر. فقد كان لتوظيف فنّ الطباعة في ذلك العهد دورٌ حاسمٌ في انتشار أفكار الإصلاح التي نادى بها الرواد. وسرعان ما ارتبطت الطباعة بحروف متحركة، وترافق انتشار الإصلاح البروتستانتي بنشأة هيئات كنسية حاولت إضفاء مراقبة.

لم تدّخر كنيسة روما جهدا في محاصرة الإصلاح بشتى السُّبل، رغم ما كان يعتمل بداخلها من خَوَر معرفي وجُمود فكري، فما كان تكوين الرهبان الديني عميقا أو مؤثرا، إذ كانت تسود في أوساط الكنيسة معرفة مدرسية وعقدية جامدة بالدين وباللاهوت، لكن تلك المحدودية الدينية ترافقت مع تطور للجهاز الرقابي الكنسي وذلك منذ تأسيس محاكم التفتيش في القرن الثاني عشر التي تولى أمرها الفرنسيسكان والدومينيكان بدعوى محاصرة الانحرافات في العقيدة. فقد حصل تراجع فعلي في إعداد اللاهوتيين

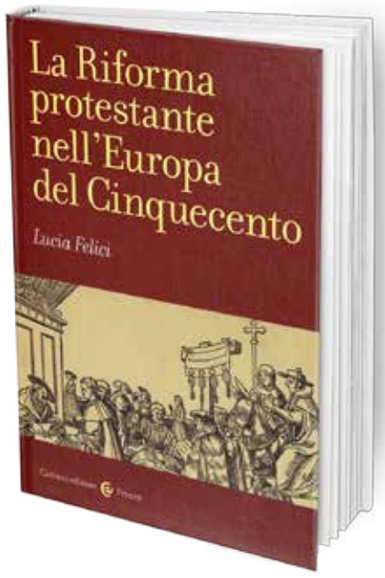

الناشطين في الكنيسة وعوّضه جهاز رقابي مؤثر، وحتى المنضويات من الراهبات، فما كن يسلكن طريق الرهبنة طوعا بل في الغالب قسرا، مما كان مدعاة لانحرافات أخلاقية جلية في تلك الفترة.

في عام ١٥٢٦م، كتب الأفينوني فرانسوا لامبرت أن الله قد أوحى بفنّ الطباعة؛ بهدف نشر الفكر الإصلاحي، كما أعلن لوثر ذاته -الذي كان أكثر من يُجيد استخدام التقنية الجديدة- أن «الطباعة آخر وأعظم نعم الله؛ لأنه أراد أن يُعرّف بها جوهر الدين الحق في كل مكان، وحتى أقاصي العالم، وينشره في جميع اللغات». في ذلك الجو المتوتر كان ظهور ردة فعل من جانب كنيسة روما حتمياً، حيث سادت نظرة إلى الكتاب باعتباره خطراً، أو مرضاً معدياً، يجب الحدّ من انتشاره، بل ومنعه بشتى السّبل، وشكّلت الكنيسة، خلال أعوام قليلة، جهازاً رقابياً واسعاً ومركبًا امتد من الباعة والمروجين إلى رجالات التعليم والمثقفين، وكان من المزمع أن يمتد نشاط الرقابة وفق ما خُطّط له إلى القارة الأوروبية بأكملها، وقد صار نموذجاً لأي تنظيم رقابي، بوليسي، ينوي سيطرته على التفكير المستقبلي، كما ترك آثاراً بليغة على حياة الأفراد، وعلى علاقتهم بالواقع، والسلطات، وعلى تطور العلوم، والمعرفة بشكل عام.

في القسم الأخير وتحت عنوان: «الإصلاح الجذري»، تُبرز الكاتبة لوتشيا فيليتشي عمق المضامين اللاهوتية لثورة الإصلاح، علاوة على الأبعاد السياسية والاقتصادية والحداثية. بالإضافة تبيّن أن رفع البروتستانتية شعاريْ «الكتاب وحده هاديا ودليلا» (sola Scriptura) و«بالإيمان لا غير تحصل النجاة» (sola fide) كمطلبين جوهريين، سعياً لسلب كنيسة روما مشروعية الوصاية على ضمائر الناس، وبغرض تحرير الدين من المفاهيم البالية. فقد نشأ الإصلاح بدافع التخلص من «الطغيان البابوي» ولأجل بناء حرية المسيحي الروحية، فكان نعت حبر الكنيسة الأعظم بالمسيح الدجال. وفي جدل الإصلاح مع رجالات الكنيسة استحوذ هاجس بناء «كنيسة الرب الحقيقية» على لوثر. لكن لا يخفى ما لتلك الموجة العارمة من آثار سلبية على المجتمعات الأوروبية، فكان من نتائج الإصلاح المباشرة نشأة ما يُعرف بـ«الأديان المسلَّحة» والمقصود التوجهات التأويلية المسيحية المتضاربة والمتصارعة، بالقول وبالفعل، وهو ما خلّف حروبا طاحنة على نطاق واسع ورسّخ تحالفات سياسية وعسكرية، حتى أطلق على ذلك العهد «قرن الحديد» لضراوته وحدّته.

والجلي أن الإصلاح لم ينشأ من فراغ، بل سبقته إرهاصات متنوعة. ويمكن الحديث عن الإصلاح البروتستانتي بما يشبه الانفجار الهائل الذي سبقه احتقان واسع. فمنذ القرن الثاني عشر كان فالدو دي ليون يبشّر في جنوب فرنسا وفي شمال إيطاليا بالفقر الرسولي وبإشاعة الكتاب المقدس في أوساط العامة. وبعد قرنين جاء جون ويكليف (١٣٣٠-١٣٨٤)، وكان يوجه انتقادات صارمة للكنيسة من منظور سياسي. ولاحقا كان موقف إرازم مسكونا بطابع إنساني كوني ينحو للمصالحة بين الأديان. لم تخل فيه دعوته من الانفتاح على الرؤى المسيحية الجديدة وبما يفوق انفتاحه على الأديان الأخرى. كما شكلت الحركة الإنسانوية ضربة صاعقة للاحتكار الثقافي الكنسي من خلال الإلحاح على كرامة الذات البشرية، والمناداة بسمو العقل والعودة للأصول. ناهيك عما وفرته الفيلولوجيا، التي تطورت مع لورنسو فالا، من أدوات مناهضة للدغمائية.

مارتن لوثر هو شخصية متجذرة في القرون الوسطى بيْد أنه شخصية منفتحة على العصر الحديث. أدخل بطروحاته قطيعة جذرية مع المدوّنة المسيحية التي سادت على مدى قرون، بما ولّد طروحات مجتمعية جديدة. حيث سرّعت الاحتجاجات اللوثرية من وتيرة التحولات داخل الدول وداخل الكنيسة، وبالمثل في الاقتصاد وفي الثقافة، وهو ما غيّر وجه أوروبا.

الكتاب: الإصلاح البروتستانتي في أوروبا خلال القرن السادس عشر.
تأليف: لوتشيا فيليتشي.
الناشر: كاروتشي (روما) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٧.
عدد الصفحات: ٣٢٦ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

أسقف في شبه الجزيرة العربية لباول هندر

رضوان ضاوي *

يعتبر كتاب «أسقف في شبه الجزيرة العربية، تجاربي مع الإسلام» للقسّ السويسري باول هندر Paul Hinder، من الكتب القليلة الصادرة حديثاً باللغة الألمانية والتي تتناول مبحث الحوار بين المسيحيين والمسلمين انطلاقاً من مسيحيي الشرق الأوسط. وتكمن أهمّية هذا الكتاب في كشف المجهود الحواري الذي بذله الأسقف باول هندر لتعميق العلاقات المسيحية الإسلامية ميدانيًا، في حين أنّ معظم الدراسات الأخرى على أهميّتها قد عُنيت بالأمور النظرية، وهذا لا يعني أنّ باول هندر لم يستعن بجهود من سبقه في المجال لتدعيم وجهة نظره، ففي كتابه نجده قد اقتبس من كتب مهمّة مثل كتاب الباحث المسلم خورشيد محند «الإسلام هو الرحمة»، وكتاب «مسيحيون عرب، مسيحيون في شبه الجزيرة العربية» لمجموعة من المؤلفين الألمان، وكتاب «حوار مع الإسلام» لشبيربر وغيرها من الكتب.

ويحيل باول على مجموعة من الدراسات الألمانية والغربية وصف فيها مؤلّفوها العلاقة بين الإسلام والمسيحية اللذين يوجدان في منافسة شديدة. ويتعلق الأمر في هذا الكتاب بتجاربه الذاتية ومعايشاته التي يصفها، وهي أوصاف تنطبق خصوصا على منطقة شبه الجزيرة العربية.

ينطلق الباحث في كتابه من قضية محدّدة هي الحوار المتبادل باعتباره أحد الكلمات المفاتيح لعالمنا الحديث، فالحوار بين الأديان مهم جدا من أجل تشييد عالمنا، فلا يمكن بالتالي التخلي عنه. ويحيل الباحث على ما قاله البابا فرانسيسكو بوضوح عن الحوار مع الإسلام والعالم الإسلامي حين خاطب المشاركين في ندوة المعهد البابوي للدراسات الإسلامية في روما قائلا بأنّ التكوين يبقى أفضل حماية ضد كل أشكال العنف، والمشترك بين المسلمين والمسيحيين أكبر من أن نحصيه، ويكفي القول بأنّ النبي إبراهيم هو أب الإسلام والمسيحية، وبأنّ سبأ تمّ ذكرها في القرآن وفي الإنجيل. رغم هذا أصبح اليمن مقبرة للمسيحيين، فقبل تحرير باول لكتابه هذا في نهاية ٢٠١٥ تمّ قتل أربع مبشّرات وقسّ في عدن.

يشير المؤلّف في هذا المضمار إلى أنّ الحوار بين المسلمين والمسيحيين يحتاج إلى الصبر وإلى التواضع حتى نستطيع التفاعل مع كل الجماعات الدينية، ويجب تجنّب الارتجالية التي يمكن أن تدمّر البلاد وتقود إلى الفوضى. ويشكّل المسلمون والمسيحيون أكثر من نصف سكان الأرض، ودون سلام أو عدالة بين أكبر مجموعتين دينيتين لا يمكن أن يصنع سلام ذو معنى في العالم، فمستقبل هذا العالم مرتبط بالسلام بين المسلمين والمسيحيين. وبدون حوار بين المسلمين والمسيحيين لن يكون هناك تعايش بين البشرية.

والأسقف السويسري باول هندر هو النائب المكلّف في النيابة الرسوليّة لجنوب شبه الجزيرة العربية باللاتينية Vicariatus Apostolicus Arabiae) منذ أكثر من عشر سنوات، وهي النيابة الرسولية التابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويقع مركزها الإداري في دولة الإمارات العربية المتحدة. وتغطي هذه الولاية الإقليمية لأتباع الطقوس اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية البلدان التالية من شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة: عمان، والإمارات العربية المتحدة، واليمن.

إلى ذلك يهدف الكتاب إلى التأكيد على حقيقة الوضع الذي يعيش فيه المسيحيون في شبه الجزيرة العربية، فيشير إلى أنه يوجد في سلطنة عمان تميّز عن باقي دول مجلس التعاون بوجود كنائس لكلّ الطوائف المسيحية ومعابد للسيخ والهندوس. وتمارس الجاليات المسيحية حرية العبادة في هذه الدولة من خلال الكنائس الخاصة بكل طائفة، وبهذا عكست سلطنة عمان تجسيداً فعلياً لحوار الأديان وحرية العبادات، وترجمت على أرض الواقع لغة العيش المشترك. وبشكل عام يمارس المسيحيون المقيمون في دول التعاون شعائرهم في أعياد الميلاد، وبحرية داخل المجمعات الكنسية التي بنيت حديثاً وتبرعت معظم حكومات دول المنطقة بأراضيها، باستثناء السعودية التي تحظر هذا النشاط. وبطبيعة الحال يمنع على الكنائس ممارسة حملات التبشير.

من الناحية المنهجية ينبغي أن نشير إلى أنّ باول هندر قد صنّف أنواع الحوار المتبادل إلى أربعة أنواع مرتبطة ببعضها البعض، وهي: ١. حوار الحياة، وفيه يعيش الناس في جوّ من الحياة المشتركة، ويتشارك الناس فيه الحزن والفرح. ٢. حوار السلوك، وفيه يعمل المسيحيون وغير المسيحيين من أجل التطور والتحرر الشامل للبشرية. ٣. حوار التبادل الديني، حيث يجتمع متخصّصون في حوار الأديان من أجل تعميق إرثهم الديني وتعلّم كيفية حماية قيمهم المتبادلة. ٤. حوار التجربة الدينية، وفيه يتقاسم المتعمّقون في تقليدهم الديني، ثروتهم الروحية وتديّنهم. وتبدو هذه التعريفات تقنية، لكنها تصف جيدا الأوجه التي يجب عليها لقاء المحاورين المسلمين. ويقول باول إنه استعان بثلاثة عناصر من خلال تجربته في حواره مع المسلمين وهي: حوار التبادل الديني، وحوار الحياة، وحوار التجربة الدينية وذلك خدمةً للفهم المتبادل.

يعرض المؤلّف مجموعة من التجارب الخاصّة بموضوع الحوار بين الأديان، ويقول إنّ الحوارات التي تجري في الدول الإسلامية لا يتمّ فيها احترام أسس الحوار، فعقب مشاركته في مؤتمر في مركز الدوحة لحوار الأديان سنة ٢٠٠٧، وبعد ختام الجلسة الأولى ومغادرة المشاركين للقاعة وقف في كل مخارج قاعة المؤتمرات طلبة الجامعة المسلمون ووزعوا على المشاركين نسخاً من القرآن الكريم. ولا يعترض باول على هذا الفعل التبشيري إذا ما تمّ تبادل الكتب المقدّسة بين أطراف الحوار، وحين يكون هذا عرضا حرًا. لكن السؤال المهمّ هنا هو التالي: هل يمكننا أن نقوم بنفس العمل بالنسبة للإنجيل في دول التعاون؟ والجواب هو بالقطع لا. في نفس السنة تلقى البابا بنديكت الثامن عشر رسالة من العلماء المسلمين يدعونه للحوار، ونشر الفاتيكان الرسالة ورحّب بمضمون الدعوة وقال بأنّه مستعد لنقاش حقيقي وديني مع المسلمين. وهنا يحيل بأول على قناعة المسلمين بأنّ القرآن هو كلمة الله، فهم لا يقبلون نقاشاً عميقاً بخصوص القرآن، لأنّهم يقولون إنّه وحي من الله، ويقول باول إنّ مع مثل هذا التأويل الحتمي يكون من الصعب التوصّل إلى حوار بنّاء وجدّي ولا يؤدي إلى حوار ثقافي وديني دون وضع الإيمان الخاص بين قوسين، لأنّ الاختلاف لا يعني العداء، والمسيحيون مقتنعون أنّهم مثل المسلمين لديهم واجب تربوي وأخلاقي ضمن قيم إنسانية، دينية وأخلاقية.

في مجال الاستنتاجات التي يذكرها في كتابه يرى المؤلّف أنّ حرية التدين في المنطقة العربية التي

يشرف عليها غير مكفولة لغير المسلمين. فالكثير من أتباع الهندوسية والبوذية يعانون صعوبات مع المسلمين، إذ بينما يعتبر المسلمون اليهود والمسيحيين أهل كتاب، يختلف الأمر في نظرهم إلى هؤلاء، وكان أحد المسلمين قد قال له: «يمكنني أن أفهم أنّ الإنسان يمكن أن يكون مسيحيّاً أو يهوديّا، لكن لا يمكنني أن استوعب أن المرء هندوسي أو بوذي. هذا إيمان ضال».

ويقول باول إنّ الأمر صعب أكثر في المملكة السعودية، رغم حاجة السعوديين إلى اليد العاملة الأجنبية الخبيرة، وحديث بعض المصادر عن أكثر من ثلاثة ملايين عامل أجنبي، إلاّ أن الممارسة العلنية للدين المسيحي محظورة، ولا توجد كنائس، أمّا امتلاك رموز مسيحية أو أشياء لها علاقة بها أو بالإنجيل أو بالصليب فهو ممنوع. وقبل ثلاث سنوات نادى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله المفتي العام في السعودية، بوجوب هدم جميع الكنائس في شبه الجزيرة العربية، قائلاً إنّ الجزيرة تخضع لدين الإسلام فقط وإنّ الرسول يقول (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان). ويتساءل باول: ماذا لو عاملت أوروبا المسلمين بالمثل فهدمت مساجدهم في أمريكا وأوروبا؟ ويشير باول إلى حقيقة مجهودات ألمانيا وسويسرا الجبّارة وبتعاون مستمر مع السعودية على منع مآلات هذا الغضب على مثل هذه الفتوى، لأنّ المال يفوز على الإيمان، واقتصاديا تمنح السعودية لسويسرا إمكانية اقتصادية كبيرة بسبب سوقها الكبير، فسويسرا تصدّر الساعات والآلات والمنتوجات الصيدلية، ومن ناحية أخرى تقدّم السعودية شروط استثمار مريحة جداً للدول الناطقة بالألمانية، بسبب الإصلاحات الداخلية العميقة في هذا البلد الخليجي. وحاليّاً تعتبر السعودية الشريك التجاري الثاني لسويسرا في الشرق الأوسط بعد الإمارات العربية.

في كلّ الأحوال، وبخصوص الحديث عن حرية الدين المقيّدة، فعلى الأقل في دولة الإمارات أو في سلطنة عمان لم تكن لدى باول أية مشاكل، فلم يتعرض قط لهجوم أو لعمل عدائي، وكان شعوره بالحرية الدينية في هذين البلدين الذين أتاحا له التجوّل باللباس الديني المسيحي دون أية مشاكل، كبيرة جدّاً، حتى أصبح الأصدقاء من الأهالي يمازحونه لأن لباسه الديني يشبه كثيراً الكندورة التي يلبسها المحليون. ففي الإمارات يمكن للمسيحي وضع رموز مسيحية في السيارة دون مشاكل وهو الأمر الذي يستحيل في العربية السعودية.

يركّز باول هندر في كتابه على ثلاثة مفاهيم أساسية في الحوار بين الدين المسيحي والدين الإسلامي، وهي مفهوم الاهتمام ومفهوم الرحمة ومفهوم اللامبالاة. بدون اهتمام لن يكون هناك بالطبع لا حوار أكاديمي ولا حوار يومي. فمثلاً من المؤكّد أنّ المسيحيين لا يطلبون اعترافاً رسمياً بأعيادهم، لكن

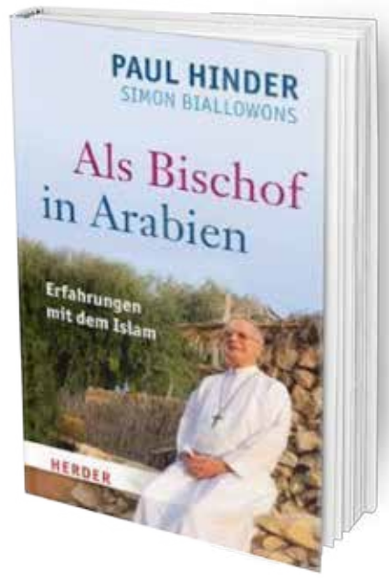

الاحتفال هو حق مشروع. هذا ما يتمناه باول أيضا في ألمانيا وسويسرا والبلدان الأوروبية بخصوص أعياد المجموعات الدينية مثل اليهودية والبوذية. وقد عاش باول في منطقة تورغاو Thurgau ذات الأغلبية البروتستانتية، رغم ذلك كان يحصل هؤلاء على العطلة المدرسية أثناء الأعياد الكاثوليكية. وهذه الثقافة تقابلها اليوم في كلا المنطقتين في الشرق وفي الغرب ثقافة التخويف وثقافة التخوين. ولكن يبقى الأمل كبيرا في الزجّ بأصوات أخرى في الحوار بين الأديان والتبادل مع الثقافات بهدف منع الاشتباكات والوصول إلى العيش المشترك والابتعاد عن احتقار حرية التديّن. فالأمر متعلق بالحوار التثاقفي، خاصة الحوار الديني الذي يجب أن يؤدي إلى الحد من التعصب والتشدد.

ويرى الكاتب الألماني محمد خورشيد في كتابه «الإسلام هو الرحمة» أنّ أهمّ تيارات وتوجهات الدّين المعاصر تتجلّى في صفة الله كما جاءت في القرآن وهي الرحمة، فالكلمة العربية مشتقة من الرحم. ومفهوم الرحمة له معنى فزيولوجي ومعنى روحي مرتبط بالحب الأمومي، فقد خلق الله البشر من رحمته رغبة منه في سيادة الحب والرحمة. وجهود تثبيت «تقليد الرحمة» في الحياة اليومية سواء في الإسلام أو في المسيحية يمكن أن تكون إحدى النقط المركزية في حوار الحياة بين المسلمين والمسيحيين. ويؤكد المسلم خورشيد والمطران المسيحي كريستوف شونبورن Schönborn على أنوثة الرحمة الإلهية وربطها بالأم. إنها نقطة ربط جميلة من أجل حوار مستمر وشامل وفهم عميق للرحمة. وهنا يتحدّث باول عن أهمّ مشكلة لدى المسلمين – حسب وجهة نظره- وتكمن في أنه يصعب عليهم استيعاب وجود أشخاص يؤمنون بطريقة مختلفة عنهم.

وبخصوص مشكلة المسيحيين، فقد ألحّ باول في بداية فترة عمله مطراناً، على الأوروبيين وعلى وسائل الإعلام الأوروبية بأنّ التديّن لا يضمّ الحداثة بل يتعايش معها، وأنّه «علينا أن نتعلم -حسب وجهة نظري- عدم اعتبار التطوّر الأوروبي هو قمة تطور البشرية التي يميل إليها ويرغب فيها الجميع. لا أشكك في قيمنا، لكن يجب الانتباه إلى مثل هذه الأمور ونكون في الوضع الذي يسمح لنا بكل جرأة ليس فقط الاعتراف بالتطورات في الثقافات الأخرى إنما في بعض النقاط الاعتراف بالتطورات بشكل أفضل مما هو عندنا».

يقول باول إن الحوار بين الديانتين ممكن ويجب أن يكون ممكنا: «يجب على المرء أن يلاحظ بأن الحوار المتداخل في الديانات هو طلب له طابع وقائي، هدفه هو تشييد علاقات جيدة مع الناس الذين لهم انتماءات دينية مختلفة، والذين نساعدهم على العيش في سلام وتوافق مع بعضهم البعض».

يرتبط الحوار بالتسامح، وبالاهتمام الذي يعني «الحضور والمشاركة، والاختلاط»، هذا يعني الاهتمام بالجذور وبالإيمان الذاتي كما الاهتمام بالأصل وبالقناعات عند الآخرين، ودون اهتمام لا يمكن لأي حوار أن يتم. وفيما يخص الحوار مع الآخرين، فإن ضياع الاهتمام هو «اللامبالاة» التي في بعض الأحيان نخلط بينها وبين التسامح. فاللامبالاة تساعد على التشدّد، وحين نكون غير مبالين، نكون نحن أيضا مشاركين في الذنب: «لقد آمنت دائما بأن عكس الحب ليس هو الكره، بل هي اللامبالاة، وعكس الإيمان ليس هو الغطرسة، إنّما هي اللامبالاة، وعكس الأمل ليس هو الشك، بل هي اللامبالاة. واللامبالاة ليست هي بداية عمليّة ما، إنّما هي نهاية العملية».

تكمن القيمة العلمية لهذا الكتاب في كونه يقارب موضوعاً فريداً ويخوض صاحبه مغامرة علمية جريئة بمحاولته الكشف عن مسالك الحوار بين المسلمين والمسيحيين من خلال عرضه وتحليله للعلاقات التاريخية والثقافية والمشترك الإنساني وحاجات عالمنا المعاصر، وهي كلها عوامل تجعل العيش المشترك والاحترام المتبادل بين مختلف الديانات مطلباً كونيّاً لا تختصّ به جماعة دينية دون غيرها، بل هو ملك للبشرية جمعاء، ولعلّ ترجمة لهذا الكتاب إلى اللغة العربية قد تكون مسلكاً مهمّا ضمن مسالك الحوار التي نحتاجها في هذه الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا.

الكتاب: أسقف في شبه الجزيرة العربية، تجاربي مع الإسلام.

الكاتب: باول هندر

لغة الكتاب: اللغة الألمانية.

دار النشر وسنة النشر: دار هردر، فرايبورغ، بازل، فيينا، ٢٠١٦.

*** مترجم وباحث مغربي في الدراسات الألمانية**

صغارٌ يصعب السيطرة عليهم وآباءٌ لا يكظمون الغيظ أوه إنْ يونغ

د. محمود عبد الغفار *

يتناول هذا الكتاب أمورًا بالغة الحساسية تتعلق بالأطفال الذين يصعب السيطرة عليهم، والآباء والأمهات الذين يحتاجون إلى معرفة كيف يتحكمون في انفعالاتهم تجاه أولئك الأطفال، وذلك في سياق اجتماعي داخل كوريا الجنوبية يحث على ضرورة التعرف- بشكل علمي ممنهج- على الدوافع أو الأسباب وراء قيام البالغين ببعض التصرفات غير السوية التي قد تستوجب أحيانًا العقاب القانوني لأنها تندرج في مصاف الجرائم. تعود المؤلفة إلى الوراء، فتتوقف عند أدق التفاصيل المتعلقة بتنشئة أولئك الصغار، وتُخضِعُ آباءهم وأمهاتهم للفحص النفسي؛ لأنهم مسؤولون بالدرجة الأولى عن كل ما يكوّن شخصية هؤلاء الصغار مستقبلاً. ولذا فقد قدمت العديد من الأمثلة الحيّة على كيفية التواصل الصحي السليم بين الآباء والأمهات والصغار؛ مركزة على كيفية إدراك الوالدين ضرورة كبح جماح غضبهم وكظم غيظهم عندما يقوم أطفالهم بسلوك غير طيب، فينطقون على الفور بعبارات غاضبة تجاههم، مما يزيد الأمر تعقيدًا في الوقت الذي يظنون فيه أن الصراخ والأصوات العالية والكلمات القاسية قد أنهت المشكلة. في هذا السياق على هؤلاء الآباء والأمهات أن يولوا اهتمامًا خاصًا بكل إشارة تصدر عن صغارهم تتعلق بالإحساس بعدم الراحة أو القلق أو الخوف ولو تجاه أشياء تبدو بسيطة.

المؤلفة هي الدكتورة «أوه إنْ يونغ» وهي طبيبة نفسية واستشارية في العديد من البرامج الإعلامية في كوريا الجنوبية مثل: «لقد أصبح أطفالنا مختلفين» و« آباء وأمهات لستين دقيقة». وفيما يبدو أنّها قد نالت ثقة متابعي تلك البرامج فغدت مقولاتها وكتاباتها مرجعًا مهمًا وأساسيًا يثق فيه الآباء والأمهات الكوريون. الدكتورة «أوه إنْ يونغ» خريجة جامعة «يون سيه» وفيها حصلت على درجة الماجستير، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في جامعة «كوريا». ومن أهم مؤلفاتها في سياق تربية الصغار: « أم قلقة وأب غير مختلف»، و« توتر الأطفال»، و« الأم التي تريد أن تعلّم طفلها وتلاعبه»، و« إلى الآباء والأمهات الذين يحسون بصعوبة مع صغارهم»، و« إلى أولئك الذين يمرون بأيام عصيبة». وهي الآن أستاذة بجامعة «يون سيه» ولها عيادة نفسية شهيرة.

يضم الكتاب أربعة أقسام أو أبواب ينقسم كل منها إلى عدد من الفصول تأتي بعد افتتاحية تدخل بشكل علمي في صميم المشكلة بطرح هذا السؤال: «هل معظم الناس هذه الأيام يتشككون في قدرتهم على ضبط أنفسهم عند الإحساس بالغضب؟» ومن خلال دراسات حيّة استعرضتها المؤلفة خرجت بنتيجة فحواها أن معظم الذين خضعوا للدراسة- وهي كذلك مثلهم- يفقدون القدرة على كظم الغيظ والاحتفاظ بهدوئهم تجاه الأمور الحساسة ولو كانت في حقيقة الأمر بسيطة، وهو أمر يمكن وصفه بالأنانية التي تؤدي لنشر طاقة سلبية تؤثر في كل أطراف الموقف وبخاصة الصغار. الخطورة هنا- طبقًا لدراسات علمية لجمعية الصحة النفسية- أن خمسين بالمائة من البالغين في كوريا يعانون من مشاكل متعلقة بكيفية كبح جماح الغضب، وأنّ عشرة بالمائة من بينهم فحسب قد تلقوا مساعدة نفسية ناجعة وسليمة. وبالتالي فالأمر يستحق أن يوصف بالخطورة لأنه يمثل ظاهرة اجتماعية، ومن هنا أيضًا تأتي أهمية الكتاب للآباء والأمهات والبالغين من الجنسين ولقطاعات عريضة أخرى من القراء بشكل عام. وفي ختام ذلك التمهيد تضع المؤلفة ثلاثة أمور أساسية على الجميع ألا ينسوها، بل وتختم بها الكتاب أيضًا:

- ليس من حق أحد، حتى الآباء والأمهات، أنْ يضرب طفلاً أو يؤذيه بدنيًا.
- ليس من حق أحد أن يصب جام غضبه على الآخرين.
- الآخرون لهم أيضًا حقوق مثلنا علينا ألا نغفل عنها ونحن نركز على حقوقنا.

يأتي الباب الأول تحت عنوان «هل تلفظت بعبارات غاضبة أمام صغارك اليوم أيضًا؟» ويتناول الفصل الأول منه بعض النقاط مثل: التربية حقًا صعبة، والآباء والأمهات الغاضبون اليوم. فقدان الاتزان والتركيز على الذات، ثم تكرار الأمر لعدة مرات. لماذا تعد تنشئة الصغار بالغة الصعوبة؟ في الفصل الثاني بعنوان « القوى المدمرة التي لا حدود لها! فالغضب المفاجئ يخرّب التربية»، تتناول المؤلفة بعض العناصر مثل: عبارات الغضب تزعج تطور المشاعر عند الصغار. تلك العبارات تفسد العلاقة بين الوالدين وصغارهم، كما أنها تقلل فرص التغلب على المشكلات. الانتظار والاحترام أمران بالغا الأهمية بخصوص التربية، لكن مع الأسف ما تنجزه جهود التربية تضيعه عبارات الغضب. أما الفصل الثالث فيغطي النقاط التالية: لماذا من الصعب القيام بالأمور التي نعلم يقينًا أنه علينا القيام بها؟ المجتمع الذي يدفع الناس نحو التلفظ بعبارات الغضب. الصغار الذين يحسون بالحزن في حاجة ماسة لمشاعر المقربين. هذا الأمر في غاية الأهمية والخطورة لأن تأثيراته تظهر في مراحل عمرية متأخرة. فالأمهات اللائي لم يلقين رعاية كافية ولم يشعرن بدفء مشاعر الوالدين يفتقدن إلى القدرة على منح الحب الكافي لصغارهن مستقبلاً لأن مشاكلهن في مرحلة الطفولة ما زالت عالقة داخلهن لم تُحل، وهذه النقطة تحديدًا هي التي تختم بها المؤلفة كتابها المهم. أمّا النقطة الأخيرة بهذا الفصل فهي «لماذا أتلفظ بعبارات الغضب تجاه أولادي بشكل خاص؟»

يأتي الباب الثاني بعنوان « نحو طريقة للتعامل مع الطفل الذي يصعب السيطرة عليه». الفصل الأول من هذا الباب بعنوان « لماذا يفتقدون إلى الصبر؟»، وتتناول المؤلفة خلاله ما يلي: لماذا صغاري ليسوا صبورين؟ قل لهم «انتظروا» ثم انتظر لأجلهم أنت أيضًا. صغار هذه الأيام لديهم مساحات محدودة من المشاعر. إكراههم على الطاعة سيفجر مشاعر الحنق داخلهم يومًا ما. الفصل الثاني بعنوان «يصرون على طريقتهم الخاصة ولا يستمعون للآخرين». ويتضمّن العناصر التالية: ما يريد أن يسمعه الآباء من أبنائهم في مقابل ما بداخل أبنائهم بالفعل. ما نحتاجه الآن هو وضع حدود للأشياء. لماذا تستمع إليّ بطريقة سيئة؟ أنت تخسر حتمًا عندما تتعامل مع غضبَ الصغار المفاجئ

بالمثل. الفصل الثالث عنوانه - ادفع، اضرب، ارم، ابصق: عندما يتصرف الصغار بعدوانية!» ويغطي هذا الفصل ما يلي: هناك غضب مكتوم في قاع التصرف العدواني. ستشعر بالسوء لو أنك فكرت على هذا النحو. عندما لا يرغب الصغار في القيام بعمل ما، قل لهم «لا». الطفل العدواني هو طفل غاضب. ويأتي الفصل الرابع بعنوان «عندما لا يستمعون إلى كلامك في الأماكن العامة، وبغض النظر عن انتباه الآخرين أو رؤيتهم لكم». ويغطي النقاط الآتية: إحساس الوالدين بالخزي جراء عدم القدرة على السيطرة على صغارهم. عليك أن تعرفهم بما لا ينبغي عليهم القيام به في أماكن معينة، ثم امنحهم الفرصة ليروا ويتعلموا. مع اهتمامك الشديد بردود أفعال جيرانك عليك أن تهتم كذلك بالقواعد التي تتواصل بها داخل منزلك وتسير بها كافة الأمور فيه. طفلي له وجهان أو شخصيتان؛ وجه داخل البيت مختلف تمامًا عن وجهه خارج البيت. الصراخ في وجوه الصغار بالأماكن العامة يجرح مشاعرهم. الفصل الخامس تحت عنوان « الصغار يعقبون على كلمات الوالدين باستمرار». ويدور حول ما يلي: تعقيب الصغار على كلام الوالدين له مردوده النفسي غير الطيب على الوالدين بكل تأكيد. شجعوهم على التحدث والتعبير عن مشاعرهم. هذه ضرورة أساسية لأجل شخصيتهم. أي تعقيب في حاجة إلى أن يُسمع. هذه ليست المشكلة. المشكلة هي؛ وماذا بعد؟ لماذا يعقب صغاري على كلامي أنا فحسب؟ أما الفصل الأخير فعنوانه «الكثير من الأساليب غير المجدية»، ويغطي العناصر الآتية: «إذلال الصغار ينم عن عدم نضج الوالدين. معرفة السبب كفيلة بتوجيه الصغير نحو التوقف عن هذا الفعل أو ذاك. عادة هناك ثلاث قصص داخل الطفل الذي يصعب السيطرة على غضبه. على الوالدين أن يهتموا أولاً بما يفكر فيه طفلهم لا برد فعل الآخرين. أربع طرق ذهبية لتهدئة ثورة الطفل الغاضب. كيف تبدو ملامح الأدب عندما تصب الأم جام غضبها على الابن؟

الباب الثالث من الكتاب تحت عنوان «البحث عن حلول للمواقف التي يحس فيها الناس بغضب مفاجئ». ويتضمن ستة فصول، جاء الأول منها بعنوان «عندما تكون الأم منشغلة أو مشغولة يتصرف الأطفال بتكاسل. ويغطي عددًا من النقاط: لماذا يقوم الصغار بهذه الأمور على نحو أسرع؟ الصغار في غاية البساطة، ولذا فهم يحتاجون إلى أن نفكر نحوهم ببساطة ونعاملهم ببساطة. لا يتعلق الأمر، بالنسبة للأب، باتخاذ جانب الأم للتخفيف عنها، وإنما يتعلق بتهذيب مشاعر صغارهم وتنميتها في الاتجاه الصحيح. عن الوالدين غير الصبورين. لماذا لا نتحمل صغارنا عندما لا ينجزون الأشياء بسرعة؟ ثم يأتي الفصل الثاني بعنوان «عندما لا

يأكلون ولا يشربون: تكون تهدئتهم غير مجدية!» ويدور الفصل حول: استثارة الوالدين بجعلهم يشعرون بالذنب. التناغم سبيل مهم لأجل أن تعيش لأولادك. قد تؤدي رغبتك المبالغ فيها تغذية أولادك إلى إفساد شخصياتهم. في مثل تلك الحالات؛ أنتم، كآباء وأمهات، المشكلة لأولادكم. الفصل الثالث بعنوان «ليس هناك ما يُحبُّ»، ويدور حول: أول فحص لمستوى الوالدين من حيث قدرتهم على رعاية صغارهم. الآباء والأمهات ممن لديهم توقعات مبالغ فيها؛ غالبًا ما يكونون قد عانوا طفولة صعبة. لأجل مَن تتصرف بحكمة وذكاء؟ عندما يتصرفون بذكاء يمكنك ساعتها أن ترشدهم إلى الطريق. الفصل الرابع بعنوان « عندما تعلمون صغاركم فأنتم تعثرون على الإجابات». ويتناول هذا الفصل: عندما تفرض نظامًا على صغارك فقد تغضب ومن ثم تكون عنيفًا عند خرق النظام. نموذج لحب الصغار. كيف تكون أبًا أو أمًّا لطفل في الثالثة؛ من الألف إلى الياء. هناك أسباب محتملة وراء الإخفاق في كونكم آباء وأمهات كما تتمنون. الفصل الخامس بعنوان «لا تناديني فأنا متعب!» ويدور حول: الأسباب وراء تلفظ الآباء بكلمات الغضب وهم مع صغارهم. حالة الأمهات اللاتي لا يعدلن رغبات أولادهن أو يقومنها. ينوح الأطفال طلبًا لمساعدة الوالدين عند إحساسهم بفقدان الثقة في قدرتهم على فعل شيء ما. الصغار يبحثون عن الأم عندما لا يحسون باحترام لذواتهم. أمّا الفصل السادس والأخير من هذا الباب فعنوانه «لماذا يتصرف الأطفال على هذا النحو؟» ويغطي العناصر الآتية: طفلي شديد الذكاء لكنه لا يفعل أي شيء! يغضب الوالدان أثناء تعليم صغارهم في الوقت الذي يتناسى فيه هؤلاء الصغار أنّهم أطفال. أولئك الصغار الذين يتصرفون بمنتهى البطء في حاجة إلى وضع حدود خاصة. كضفدعة؛ عليك أن تفكر في ذلك الوقت عندما كنت فرخ ضفدع صغير!

الباب الرابع والأخير من الكتاب بعنوان « صَغيري؛ إن لم تكن تريده أن يكون عدوانيًا في سن البلوغ!» ويضم هذا الباب أربعة فصول؛ الفصل الأول «الحقائق التي يجب أن يعرفها أولئك الذين يغضبون بسرعة»، ويضم ما يلي: لن يكون أحدٌ آمنًا عندما يغضب الجميع فجأة. ليس للآخرين أي حق في إلقاء مشكلاتهم النفسية التي لم يقوموا بحلها فوق رأسي أنا. احترام الذات والقدرة على إخضاعها للفحص. الفصل الثاني بعنوان «أنا في حاجة للتغيير لأني سريع الغضب». ويتعلق هذا الفصل بالنقاط الآتية: الاعتراف بعدم الإحساس بالأمان وبصعوبة التحكم في الانفعالات أول الطريق الصحيح. دونوا الحقائق العامة في مواقف عدم القدرة على السيطرة على الانفعال. تذكروا العلاقة بينكم وبين بعضكم بعضًا وبينكم وبين أطفالكم. الفرق بين الغضب المفاجئ نحو شخص غريب ونحو أطفالنا يكمن في أهمية صغارنا بالنسبة لنا. لا تلق باللوم على أحد حتى وإن غضب بسرعة. الفصل الثالث بعنوان «الوالدان اللذان لا يظهران غضبهما أمام أطفالهما». ويتعلق هذا الفصل بعدد من النقاط حول ضرورة تأمل المواقف التي تبالغون فيها في لعب دور الأب أو الأم. وأهمية ملاحظة سرعة متابعتكم لصغاركم، وقيمة معرفة الكثير من المعلومات عن صغاركم، فعلى سبيل المثال يجب تخصيص ولو عشر دقائق يوميًا للتفكير في أحوال أفراد الأسرة وأخيرًا عليكم أن تعلموا الفرق بين «الانتظار» و«القدرة على التحمل». ثم يأتي الفصل الرابع والأخير تحت عنوان «كيف ترفع معدل ضبط النفس عند طفل غير صبور؟» ويتوقف هذا الفصل عند عدد مهم من النقاط مثل؛ الرابطة أو الشعرة الفاصلة بين الحنو المبالغ فيه والقسوة الشديدة، وعند سن الثالثة عليكم أن تعلموا صغاركم النظام والضبط، لا تجعلوا لصغاركم الأهمية الأولى دائمًا، وقصة التعلم الذاتي، وأخيرًا وليس آخرًا، بل إنه أهم الأمور وقبلها جميعًا؛ امنحوا صغاركم القدر الكافي من المحبة.

عنوان الكتاب: صغار يصعب السيطرة عليهم وآباء لا يكظمون الغيظ

المؤلف: أوه إن يونغ

عدد صفحات الكتاب: ٣٤٤ صفحة

اللغة: الكورية

تاريخ النشر: مايو ٢٠١٦م

دار النشر: كوريا دوت كوم

* (مدرس الأدب الحديث والمقارن، كلية الآداب- جامعة القاهرة)

أسرار فولغا بلغاريا.. ليوري سوبرونينكو

أحمد الرحبي *

((إلى المدن الصغيرة من أجل التاريخ الكبير))

«لا أعرف كيف وبأية وسيلة بلغت الرسالة المحمدية هذه الأراضي الشمالية، القصية والنائية» - هكذا يصف غليوم دي روبروك بعضاً من مشاهداته في دولة فولغا بلغاريا التاريخية (وهي حاليا جزء من روسيا). وغليوم هذا راهب فرنسيسكاني فلمنكي من القرن الثالث عشر، امتهن الترحال بمسلك تبشيري ووضع مؤلفات عديدة يُعرف منها كتاب «رحلة إلى البلدان الشرقية».

ولنا أن نتخيل انعكاس المشاهد في تلك السهول التي وصلها الإسلام في عيون الرحالة الغربيين ونفوسهم. إننا نرى المعمار الإسلامي المتمثل بالجوامع والمساجد بمناراتها وقببها وأقواسها وهي تقف على خلفية السهول الروسية الوسطى. لا شك أنّ وقع ذلك كان مدهشًا لرحالة القرون الوسطى بل ومربكًا لغرائزهم الدينية والجمالية. وليس هذا وحسب، فإلى جانب المظهر الإسلامي لفولغا بلغاريا، ثمة أيضًا المناحي المدنية، حيث المحترفات الصناعية التي تنتج الفخار والجلد ذات الجودة العالية، لدرجة أن الجلد حين يشار إلى جودته آنذاك يوصف بالجلد البلغاري. وحيث صناعة الأسلحة المتطورة في زمانها وقد أطبقت شهرتها الآفاق، فكان المؤلفون العرب يذكرونها في تصانيفهم ويشهدون للجنود البلغار بالفروسية وبدرعهم القوية وذخيرتهم المكينة. وعن منعة فولغا بلغاريا الحضارية يذكرُ التاريخ أن الأمير الروسي فلاديمير الأول، وبعد أن فشل البلغار أنفسهم في إقناعه باعتناق الإسلام، نظم حملة عسكرية إلى فولغا بلغاريا لإدراك الجزية منها، ولكنه بعد أن وقف على أحوال البلاد وتعرّف على المستوى الثقافي لأهلها، كف عن خطته وقال عبارته الدالة: «إنّ القوم الذين يرتدون الأحذية لا يمكن أن تقتص منهم الجزية، ومن الأجدى لنا البحث عن الذين لم يخلعوا النعال الخشبية بعد». بعد ذلك، وكما هو معروف، اتفق البلدان على توطيد السلم بينهما.

هكذا كان شأو حاضرة من حواضر الإسلام في أصقاع أوراسيا العظيمة، ومن يدري إلى أي مرتقى آخر كانت ستبلغه فولغا بلغاريا لولا الريح التي هبت من شرق آسيا حاملة رايات المغول والتي اقتلعت في طريقها كل ما سواها؟ لقد كانت دولة فولغا بلغاريا التي آخت بين التاريخ والجغرافيا وغرست عروق الثقافة الإسلامية في ضفاف الفولغا الخصبة هي أول من تصدى لحوافر «القبيلة الذهبية» في تلك البقاع. ولكن مدنها المحصنة لم تقو على الصمود أمام الزحف المغولي ومنها العاصمة «بيلر» التي هدمت بالكامل بعد حصار عام ١٢٣٦ ولم يترك المغول منها سوى اسمها. وبذلك الحدث الجسيم فقدت أوروبا القرون الوسطى أحد أكبر مراكزها الصناعية والتجارية. ويبقى أن الذي حمى ثقافة فولغا بلغاريا من الزوال المبرم هو نفسه الذي أعلى من شأنهم فيما سبق، أي الإسلام، فالمغول، وبعد وقت قصير من اجتياحهم البلاد، اعتنقوا الإسلام، فاندمجت حضارة فولغا بلغاريا بالقبيلة الذهبية (كما يتغنى المغول فخرا بأصلهم) واستمر وجودها فيما بعد ضمن مدينة قازان.

الكاتب والصحفي الروسي يوري سوبرونينكو، الخبير في دراسات التاريخ المحلي وعلم الجغرافيا وأحد أعلام معهد الجغرافيا في أكاديمية العلوم الروسية، كرّس عمله الجديد لتراث فولغا بلغاريا الثقافي والديني المجهول وغير المدروس، ومن هنا جاء استعمال كلمة (أسرار) في عنوان الكتاب. وخلافا لاندثار الجزء الأكبر من شواهد ثقافة الفولغا بلغارية المادية، يرى الكاتب أنّ الإسلام، استنادا إلى دخوله المبكر إلى المنطقة الشمالية، وما نتج عن ذلك من تأثير وتغيير في تاريخ المنطقة، كان ولا يزال أهم المكوّنات التراثية لهذه الثقافة. انطلاقا من هذه الخلاصة، وبعد العرض السريع لتاريخ دولة فولغا بلغاريا القديمة في فصلين من الكتاب: «فولغا بلغاريا ما قبل الإسلام» و «كيف بدأ الإسلام» ينطلق الكاتب في وصف القيم الإسلامية لفولغا بلغاريا ووريثتها المعاصرة مدينة قازان.

بداية ذي بدء ينقل المؤلف قصة اعتناق فولغا بلغاريا الإسلام عام ٩٢٢ عن المؤرخ الفولغي بلغاري يعقوب نوجما بأن أحد التجار المسلمين وصل إلى تلك البلاد قادما من مدينة بخارى. وكان الرجل – على مجرى التجار المسلمين آنذاك – على جانب من العلم وماهرا في فنون الطب. وحدث أنّ ملك فولغا بلغاريا وزوجته كانا طريحي الفراش وقد أصيبا بمرض عضال. وأمام عجز الأطباء وبطلان الأدوية، تقدم التاجر ليعلن عن مقدرته في علاج المليكين ولكن شريطة أن يعتنقا دينه، فكان للملك وقرينته الشفاء وكان للتاجر ما أراد. ولأن الناس على دين ملوكهم، دان أهل البلاد قاطبة بدين محمد.

يضع المؤلف في حسبانه اعتبارات براغماتية لهذه الخطوة التاريخية الخطيرة، فيشير إلى أنّ فولغا بلغاريا كانت بحاجة إلى دعم حقيقي للتصدي لأطماع امبراطورية الخزر الواسعة والمجاورة لها. وكانت دولة الخلافة العباسية الوحيدة في ذلك الوقت التي بمستطاعها تقديم ذلك العون. وهكذا توسّعت العلاقات بين فولغا بلغاريا وبغداد وضمنت الحماية لها، فضلا عن المساعدات المادية لتمويل حروبهم في القرن الثامن، وفضلا عن فوائد التجارة مع العرب ومد خطوط تجارتهم إلى الأسواق العربية الكبيرة، فازدهرت تجارة فولغا بلغاريا جنبا إلى جنب مع ازدياد نفوذ العباسيين في تلك الأصقاع. مع ذلك، وخلافا لكل هذه المصالح الدنيوية، يشدد المؤلف على تمسك أهل فولغا بلغاريا بعقيدتهم التي رضوا بها وبأنّهم لم ينحرفوا عنها أو يقايضوا بها فضلا عن أنّهم عرضوا على جارتهم الكبيرة روسيا عام ٩٨٦ أن تصبح دولة إسلامية ولكن الأخيرة اختارت المسيحية بعد ذلك بسنتين.

وفي حديثه عن تراث فولغا بلغاريا، يسوق

الكاتب أمثلة كثيرة عن الصلة الوثيقة التي تجمع هذا التراث بثقافة الشرق العربي، وينوّه تحديدا بالعادات والقيم التي يلتزم بها سكان مدينة قازان الروسية في وقتنا الحاضر. هاك مثالاً على النصوص الرثائية التي دونت في القرنين الثالث والرابع عشر بالحرف العربي، وهاك أيضا اعتزاز الناس بالقرآن فشرعوا بطبع أكبر نسخة له، بلغ وزنها ٨٠٠ كلغ وامتدت أبعادها إلى مترين طولاً ومتر ونصف عرضاً، ناهيك عن صفائح الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي استخدمت في صناعتها، وقد تمت صناعتها في إيطاليا، وشيد لها مبنى خاص في قازان عام ٢٠١٢ احتفالا بيوبيل اعتناق فولغا بلغاريا الإسلام. هناك أيضا أسماء المدن التي تدين للغة العربية كمدينة «برياخيموف» التي أسسها خان من فولغا بلغاريا يدعى إبرهيم؛ فاستردها اللسان الروسي إلى لفظته فصارت بداية «إبراهيموف» ثم صارت إلى «برياخيموف» لتسكن في اللغة الروسية وكأنّها منها، وهذا هو حال المفردات الأجنبية حينما تنغرس في اللغات الحية.

في فصل «الجوامع... الإسلام كواجهة للمدينة» وهو أكبر فصول الكتاب يتحدث الكاتب عن تاريخ المعمار، ويعيّن الجوامع الأحد عشر في مدينة قازان التترية كأمثلة وشواهد لتقصيه التاريخي والفني هذا. يحدثنا عن ظروف إنشاء كل جامع منها، متتبعا مراحل ازدهاره ومتوقفا عند مناسبات إغلاقه، كما يخبرنا عن المراكز التعليمية التابعة لها والإنجازات التي أحرزتها ويعدد أسماء الناشطين الإسلاميين في المنطقة، خاصا بالذكر الفيلسوف والمستشرق والمتصوف شيغابو الدين مارجاني (١٨١٨-١٨٨٩). يبرز الكاتب خواص كل جامع منها، بيد أنه يتمهل أكثر أمام الجامع الأبيض لما يحمله من خاصية تتعلق بطرازه المعماري من جهة وبالزمن الذي شيد فيه والرمزية التي أريد له أن يكتسبها من جهة أخرى. يقول الكاتب عن هذا الجامع الجميل والبارز فوق ربوة عظيمة من قلب العاصمة التترية قازان: «يصح لنا القول إن هذا الجامع قد جمع خصائص العصر الحديث عموما وخاصية المعمار التتري الديني للنصف الأول من القرن العشرين على وجه الخصوص. إنّه الجامع والمسجد الوحيد الذي بني في العهد السوفيتي. ومع أن السلطة السوفيتية قد انتهجت خطا معارضا للأديان في بداية

حكمها، وهدمت الكنائس الأرثوذكسية، بيد أنها تصرفت بحذر حيال الأماكن الدينية للأقليات القومية. ويبدو أنّ ذلك كان جزءا من استراتيجيتها لجذب المناطق المتاخمة لامبراطوريتها. شيد الجامع بين أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٤، التاريخ الذي يوافق ألفية دخول الإسلام إلى هذه الأرض. وقد تم بناؤه من أموال المتبرعين من المسلمين، ما يدل على الحنين الديني للأهالي المحليين. بني الجامع بالآجر الأحمر بمأذنة على مدخله الواقع فوق ضفة بحيرة قابان، ويمثل بمجمله طرازًا قوميا حديثا (مودرن)، متطورًا عن الطراز المعماري الإسلامي القديم الذي يتضافر فيه النموذج العربي والموريتاني للقرون الوسطى» (ص ٩٠).

يتميز كتاب «أسرار فولغا بلغاريا» بجمعه الكثير من الآراء والمصادر النادرة وشبه المنسية التي تدل على موقع فولغا بلغاريا في الحضارة الإنسانية وموروثها الثقافي الذي يتمتع به سكان قازان التترية اليوم. ومن بين الأقوال التي أوردها المؤلف ما سجله كبير المؤرخين الروس سيرغي سوليفيوف في حق ثقافة فولغا بلغاريا حيث يقول: «في ذلك الزمان، حين لم يشرع السلاف الروسي في بناء كنائسه المسيحية بعد، كان الفولغي بلغاري يستمع إلى القرآن على ضفاف نهري الفولغا وكاما» (ص ٧٦).

يتخذ المؤلف موقفًا مؤيدًا من أطروحات المؤرخ السوفيتي ميخائيل خودياكوف القائلة بأن تتر قازان كانوا يتمتعون بثقافة متطورة قبل دخولهم إلى حاضنة الإمبراطورية الروسية بوقت طويل، بل إن سياسة (الترويس) ألحقت بثقافتهم ضررًا ملحوظًا. ويشدد الكاتب على كارثية المنهج العلمي التاريخي في هذا الاتجاه حيث يقول: «لقد وقع خودياكوف ضحية دعاية السلطة التي أعدمته بتهمة معاداة الشعب السوفيتي، ليعاد النظر في تهمته بعد عشرين عاما من إعدامه. ومع ذلك ما زالت أعماله العلمية محظورة ومُبعدة عن رفوف المكتبات، حيث إنّ نظرياته لا تتماشى مع العلم التاريخي الرسمي الذي لم يعرف وقتذاك ألوانا سوى الأبيض والأسود» (ص ٥٦).

لم يرغب الكاتب في حصر كتابه في زاوية ثقافية تاريخية وحيدة (وإن بقي المتن مكرسا لهذه الزاوية) فأخذ يسوق مقولاته عن الشأن السياسي الذي بدأ يتفاعل مع الوضع العالمي الراهن، لا سيما فيما يتعلق بالمزاج الديني المتطرف. ويعتقد المؤلف أنّ الفكر الديني المتشدد لم يعد محصورًا في القوقاز ومتحصنا بجبالها أذ أخذ يتسلل إلى ضفاف الفولغا ويتخذ له مظاهر في الجمهوريات المسلمة الواقعة على ضفافه، وبأنّ ما يتوارد اليوم في تترستان وبشكيريا من بوادر متطرفة يعّد قفزة جيوسياسية إلى وسط روسيا. هناك ما يشبه الحركة التبشيرية بين أوساط الشبيبة ودفعهم للتشدد، وهؤلاء من طينة رقيقة قابلة للتشكل. وهناك خطر الطائفية المدمر للتوازن والسلم المجتمعي. ويُحذّر الكاتب من سلطة الأفكار المتطرفة على مجتمع متعدد الأديان، كما أنّه يرصد وقائع إجرامية اتخذت منزعا دينيا لم يكن له وجود في جمهوريات نهر الفولغا الروسية.

في الختام، وبعد أن التمس الكاتب والصحفي الروسي يوري سوبرينينكو في كتابه «أسرار فولغا بلغاريا» نهجه الخاص لفك أسرار تلك البلاد العريقة، وبرغم ابتعاده عن موضوعه العام بهذا المقدار أو ذاك، واستبداله خاتم التاريخ بفصوص السياسية، تبقى الزاوية الأكثر كرما وإضاءة في الكتاب، التي أخلص لها الكاتب بعاطفته وأحسن لها بحماسته التأليفية، هي زاوية رسمه لخطوط النفوذ الشرقية العربية في منطقة الفولغا الروسية، واهتمامه البالغ والأصيل بالآثار والقيم الإنسانية الإسلامية في تلك الأصقاع العظيمة.

الكتاب: أسرار فولغا بلغاريا.
المؤلف: يوري سوبرينينكو.
الناشر: دار نشر «فيتشي»/ موسكو ٢٠١٦.
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحة.

* كاتب عُماني

الموجة الثالثة من الاحتجاج والثورة في الشرق الأوسط لـ "إيلى فوده" و"أوين وينكلر"

أميرة سامي *

في ديسمبر عام ٢٠١٠ قام شاب تونسي يدعى محمد البوعزيزي بإحراق نفسه احتجاجا على الأوضاع المتردية، ومنها انتشار البطالة، وهذا العمل أحدث ضجة ثورية في أنحاء الوطن العربي فأدى إلى سقوط أنظمة الحكم في تونس وليبيا ومصر واليمن، كما انتشرت الأفكار الثورية في معظم البلاد العربية وهذه الأحداث أطلق عليها الربيع العربي، وتعتبر الموجة الثالثة من الصحوة في المنطقة العربية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وكانت الآمال معلقة في تلك الدول على نيل حريتها وكانت النتائج مخيبة للآمال لديها، كذلك الأمر بعد الربيع العربي حيث فشلت الثورات في أهدافها، وعمت الفوضى، وعدم الاستقرار في تلك البلاد، كما انتشرت الجماعات الإرهابية الجهادية، وقد يختلف الوضع في تونس؛ حيث ظهرت بعض علامات الديمقراطية لكن الأزمة الاقتصادية التي تمر بها تهدد الاستقرار السياسي، ويعتبر هذا الكتاب أول دراسة ترصد تلك الاضطرابات التي حدثت خلال ثورات الربيع العربي.

مؤلفا الكتاب البروفيسور אלי פודה إيلي فودة وهو رئيس الجمعية الإسلامية والشرق أوسطية، محاضر في الدراسات الإسلامية والشرق الأوسط في الجامعة العبرية، وعضو في מיתווים «المعهد الإسرائيلي للسياسة الخارجية الإقليمية»، قام بنشر وتحرير عشرة كتب وأكثر من سبعين مقالة حول الشرق الأوسط الحديث والعلاقات الإسرائيلية العربية، والبروفيسور און וינקלר أوين وينكلر وهو محاضر في قسم تاريخ الشرق الأوسط في جامعة حيفا، قام بنشر وتحرير ثمانية كتب وخمسين مقالة في مجال التاريخ الاقتصادي والديمغرافي في الشرق الأوسط.

قدما في كتاب "הגל השלישי: מחאה ומהפכה במזרח התיכון الموجة الثالثة من الاحتجاج والثورة في الشرق الأوسط» الظواهر التي جسدت العالم العربي منذ ديسمبر عام ٢٠١٠م فصاعدا، وكانت عبارة عن مجموعة من أحداث متنوعة ببعض الأنظمة الاستبدادية كانت (نفعية أو أصولية) تتوافق بصورة واسعة في الآراء على الاستقرار لكونها محصنة من الإصابة (الضرر) الداخلي، وعلى الأقل كان تحديا خطيرا، كما هو الحال السوري لم يكن هناك شيء من هذا القبيل في العالم العربي في الماضي.

وقد حدث ذلك في كل أنظمة الحكم في البلدان العربية التي وقعت بسبب الانقلابات العسكرية أو أصبح الصراع على السلطة عنيفا بين مجموعات من الأفراد العسكريين، ولم يخطر على البال أن يتم تغيير الحكومة بطريقة ديمقراطية، أو استجابة لمظاهرات حاشدة تطالب بإزالة النظام القائم.

وهذا الأمر ذو أهمية كبيرة، أنه عندما حدثت العمليات الديمقراطية بعيدة المدى في التسعينيات من القرن الماضي في أوروبا الشرقية والوسطى، وأمريكا اللاتينية، أفريقيا جنوب الصحراء وجنوب شرق آسيا، لم تكن أي من البلدان العربية قد شهدت عمليات مماثلة حيث كانت الديمقراطية مدفوعة "מלמעלה من أعلى»، مثل نظام גורבצ'וב غورباتشوف، والحركات الشعبية من أجل الديمقراطية كما كانت في بولندا أو تشيكوسلوفاكيا، في نفس الوقت الاعتقاد السائد بين الباحثين والسياسيين على حد سواء أنّ العالم العربي هو مختلف، ولا ينبغي أن تطبق فيها عمليات إرساء الديمقراطية، اتضح الآن أنّ هذا النهج كان خطأ جوهريا؛ إلا أن « الجدول الزمني العربي» كان مختلفا إلى حد ما.

وعلى الرغم من الشعور بأن الاضطرابات قد أحاطت كل العالم العربي، وهذا الكلام غير صحيح، فالثورات شكلت تحديا للسلطات وتغيير النظام في بلدان قليلة فقط، من بين ثمانية عشر من البلدان الناطقة باللغة العربية انهار» המשטר הישן نظام الحكم القديم» فقط في أربع دول، بينما نظام الأسد في سوريا لا يزالون يتقاتلون حتى كتابة هذه السطور، وبنجاح كبير على حياته.

الأنظمة التي حدثت فيها الثورات كانت جمهوريات استبدادية سيطر عليها ضباط الجيش الذين جاءوا إلى السلطة عبر الانقلاب العسكري، وبعد ذلك تولوا الحكم، ومع ذلك لم تكن هناك المظاهرات الحاشدة في أي من الأنظمة الملكية الحاكمة التقليدية (المغرب والأردن والمملكة العربية السعودية ودول الخليج (ما عدا البحرين، حيث التوتر بين الشيعة غالبية السكان، والأسرة «المالكة السنية» السبب الرئيسي للمظاهرات وأعمال الشغب).

ما هي أسباب هذا الاختلاف؟ من المستحيل أن نشرح أسباب قابلة للقياس الكمي (الوضع المالي، الناتج القومي الإجمالي للفرد الواحد، وما إلى ذلك)، فالمملكة العربية السعودية ودول الخليج غنية حقا، لكن المغرب والأردن ليستا هكذا، ومستحيل تفسير هذا بدرجة قمعية (قمع الحقوق) إلى حد ما، فالحقوق المدنية يتم منعها في المملكة العربية السعودية وأكثر بكثير من ذلك من قمع الحقوق في مصر أيام مبارك، وفي تونس أيام زين العابدين بن علي حيث كانت حرية التعبير أكثر مما هو كائن عليه في سوريا، على سبيل المثال.

اتضح أن هناك بحثا عن تفسيرات أخرى للفرق بين الدول التي وقعت فيها المظاهرات وأطاحت بحكامها أو الطعن في الأنظمة والبلدان التي لم تحدث فيها هذه الأمور، الجمهوريات العسكرية الاستبدادية تفتقر إلى بعض الأسس الشرعية. وعندما بدأت الاحتجاجات لم تستطع السلطات أن تعتمد فقط على القوة الغاشمة، ولهذا تم القبض على مبارك وبن علي والقذافي والأسد في نهاية المطاف كحكام ليس لديهم الشرعية الواسعة على الشعب. والحقيقة أنّ بعضهم حاول إنشاء السلالات ليورث أبناءه العهد (الظاهرة التي جعلت سعد الدين إبراهيم يدعوها بمسمى ג'ומלוכיה جملكية يقصد بها الجمهورية الوراثية والجملكية تعبير جديد وضعه حول توريث الحكم في النظام الجمهوري أو الجمهورية الملكية للإشارة إلى عدم شرعية هذه النظم.

من ناحية أخرى تبين أن الأنظمة الملكية التقليدية للأسر الحاكمة تتمتع بالشرعية التقليدية التي لها جذور دينية، حيث تعتبر العائلات المالكة في المغرب والأردن أحفاد النبي محمد والمملكة العربية السعودية الوصي على الأماكن المقدسة، والتظاهر ضد الملك الأردني يعني التظاهر ضد سلالة النبي، وضد السياسة والحكومة ورئيس الوزراء، ولكن ليس ضد الملك نفسه، هذا لا يعني بقاء هذه الأنظمة الملكية على قيد الحياة إلى الأبد، فكان السبب الذي لم يجعل هذه الدول تتعرض لموجه احتجاجات الربيع العربي يرتكز في الثقافة السياسية والتقاليد الشرعية للأنظمة الملكية التي تختلف كثيرا عن الجمهوريات الاستبدادية، يجب أن يضاف إلى ذلك أنّ هذه الأنظمة الملكية قادرة جدا على التخلص من المعارضين للسلطة دون الإضرار بشرعيتها من خلال الاستقطاب من جمهوريات الاستبداد، ويظهر هذا إلى حد ما في الأردن، وأكثر بروزا في المغرب، ولكن يستثنى الجزائر من هذا التصنيف فهي جمهورية قاعدتها عسكرية والبيانات الأساسية لها مميزة، وقد خاضت الجزائر حربا أهلية دموية بسبب الانتصار الانتخابي للأحزاب الإسلامية في التسعينيات.

فكان المجلس العسكري الحاكم في الجزائر هو جبهة التحرير الوطني פל"| المعادية للاستعمار والحركة التي أدت إلى استقلال الجزائر، وتتمتع بهالة من التحرير الوطني وهي ليست طائفة ضباط وإنما رمز

للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي والنصر الوطني الجزائري، وأخيرا، الجزائر قطاع النفط واضح أنه واجهة للسلطة وأداة قوية في شكل العائدات النفطية تحقق الاستقرار والقوة للحكم.

على المستوى النظري قضية الشرعية لنظام معين معقدة لا يمكن تحديدها أو تعيين التعريف الدقيق الذي يؤسس بوعي ونشاط وفقا لهذه المعرفة سواء من خلال التأييد(الدعم) أو من خلال الاستئناف لشرعية يمكن أن تنشق بسهولة تحت ضغط الأحداث غير المتوقعة ونظرا لدخول فاعلين جدد إلى الساحة ومن الواضح أيضا أن تمديد وتوسعة الشبكات الاجتماعية يكثف كل هذه التغييرات، ويسمح بالتغييرات المكثفة في فترة قصيرة من الزمن، لا يتم قطع هذه التعديلات من القدرات والإرادة لتستخدم بقوة من جانب الحكام، ويمكن أن تعتبر مشروعة أو يتغاضى عنها على الأقل فربما يتراجع عنها بين عشية وضحاها، على أي حال يبدو أن البعد الشرعي عامل رئيسي في الاضطرابات والتحولات الحاسمة التي كانت في العالم العربي، وسوف يواصل لعب دور مهم في التطورات المستقبلية.

جانب آخر من التطورات الدراماتيكية والسريعة في العالم العربي هي خيبة الأمل أو الانتقال من الآمال التي زرعتها بداية الثورات إلى خيبة أمل عميقة من تطويرها، فمن الصعب اليوم ذكر أجواء الأمل التي سادت بداية عام ٢٠١١ عندما انهارت الأنظمة المستبدة واحدة تلو الأخرى مثل أحجار الدومينو، ويبدو أن عهدا ديمقراطيا جديدا يبدأ بتطويق المنطقة بأكملها، ويبني عليها لأول مرة في التاريخ، ويعزز الأنظمة الديمقراطية. مصطلح "האביב הערבי" الربيع العربي «نظراً لما يبدو أنه عملية تاريخية، وصياغته مستوحاة من ربيع الشعوب الأوروبية عام ١٨٤٨م، ولم تخلو بالطبع المقارنات سواء في الخطابة السياسية بالمنطقة والعالم والتحليلات الأكاديمية، التي تسعى إلى إيجاد أوجه التشابه والتوازي في عمليات التغيير الدراماتيكية في التاريخ الأوروبي، سواء بين الثورة الفرنسية أو بين انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية في الفترة ١٩٨٩-١٩٩١.

تنبع هذه الخطوات في الأساس من مزج الأمل مع البنية التحتية للفكر أو النظرة العالمية أو نتيجة عصر "הנאורות التنوير»، والتي ترى في التاريخ الحتمية ومن مبادئه أن قشرة الأرض مشابهة في كل مكان وأن مسار التحرر من التاريخ واضح باتجاه واحد حتى إذا أبطأ في منطقة أو أخرى سوف يأتي في نهاية المطاف، عندما تتفكك الأنظمة الشيوعية وهذا الرأي الأحادي والمتعدد التأثير هو وجهة نظر פרנסיס פוקויימה فرانسيس فوكوياما التي عبر عنها في كتابه קץ ההיסטוריה نهاية التاريخ.

يوضح الكتاب أنّ المظاهرات التي حدثت في ميدان التحرير وشارك فيها ما يقرب من مليون ونصف مليون مشارك ما هي إلا مجرد سراب كبير لأن مصر بلد شاسع بها أكثر من ٩٠ مليون ولكن هذه الأقلية كانت تناضل من أجل صياغة أكثر وضوحا وهي المقاومة الأساسية لنظام مبارك، والذي كان القاسم المشترك الوحيد لكل من العلمانيين والإسلاميين على حد سواء، وهذه المجموعات استطاعت أن تسقط الأنظمة المستبدة أثناء

المظاهرات الحاشدة، وهذا ما حدث بالفعل في مصر وتونس لكن إقامة الديمقراطية المتماسكة والفعالة لن يحدث مرة واحدة فهي عملية طويلة غالبا ما تأخذ سنوات متعددة من أجل إنشاء المؤسسات ودعم المنظمات والأحزاب السياسية.

كان أقوى منظمتين في مصر في هذا التوقيت الجيش من جهة والإخوان المسلمون من جهة أخرى ويذكر الكتاب أن مقولة «الجيش والشعب يد واحدة » كان ينظر إليها على أنها دعم للاحتجاجات أو المظاهرات ضد القمع أو الطغيان ولم يتمكن العديد من المراقبين فهم دور هاتين الهيئتين في المجتمع المصري، فالجيش لم يكن إلا أساس النظام وتاريخيا كان الجيش المصري هو المعبر عن الهوية الوطنية المصرية منذ أيام «محمد علي» في أوائل القرن التاسع عشر، ومن المؤكد بعد حرب ١٩٧٣م، وفي هذا الصدد أن شعار « الجيش والشعب يد واحدة » تعبر عن حقيقة عميقة منذ الأيام الأولى للثورة، فكان واضحا أن الجيش لا يطلق النار على المتظاهرين، علاوة على ذلك عقود الهيمنة العسكرية على مصر جعلته عاملا رئيسا في المجال الاقتصادي ولذلك فإن الجيش المصري لم يكن سوى نقطة محورية من التضامن السياسي حيث جمع بين المصالح الاقتصادية والسلطة السياسية. وينبغي الإشارة إلى أن مفهوم الديمقراطية عند جماعة الإخوان المسلمين كان ذا بعد واحد وانعكس في سياسة مرسي وتصريحاته وجماعته التي رأت أن الديمقراطية تعني فقط الوصول إلى السلطة» لقد فزنا بأغلبية لذلك كل ما نقوم به شرعي» فكانوا يسعون إلى إقامة نظام من شأنه تكريس الحكم الاستبدادي.

مع كل هذه الاختلافات يمكن فهم هذه المعضلات من خلال النظر إلى ما حدث للأنظمة في أوروبا الشرقية بعد سقوط الشيوعية، فعندما انهارت هذه الأنظمة كانت نقطة انطلاق تحول ديمقراطي مماثل.

هذه التحليلات مهمة من أجل التطورات في العالم العربي اليوم، والحقيقة أن جميع مكونات المجتمع المدني في الدول العربية ضعيفة والسبب أن مصر وسوريا والعراق في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين كانت ذات أنظمة دستورية مضللة.

ويبدو أنّ أهمية الربيع العربي على المدى البعيد إلقاء نظرة في الواقع على مستوى النظام في دول الشرق الأوسط بدلا من تغيير النظام، وقد تم تصميم نظام الدولة في الشرق الأوسط لمراقبة ما بعد الاستعمار البريطاني والفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، وهذا النظام الآن يواجه التفكك في كل ما كان يسمى في ذلك الوقت «بلاد الشام» والتي تأسست في سوريا ولبنان والأردن والعراق في ضوء اتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦) هذا النظام من الاتفاقيات يعكس المصالح الامبريالية الأوروبية التي رسمت دون أي اعتبار للتاريخ أو الجغرافيا أو التكوين العرقي الديني للسكان الذين يعيشون في المنطقة، عندما اكتسبت هذه الدول الاستقلال السياسي، كان من مصلحة الحكام أن يحددوا الوضع الراهن خصوصا عندما سعت أيدولوجيا الوحدة العربية لتجاوز حدود سايكس بيكو التعسفية، وكان واضحا للجميع أنّ إعادة فتح الحدود سيتم فتح صندوق باندورا תיבת פנדורה(صندوق باندورا في الميثولوجيا الإغريقية، هو صندوق حُمل بواسطة باندورا يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن، ووقاحة) لكن لم يهتم أحد، وعندما هزت رياح الربيع العربي الوضع الراهن ووضع الحكام والبحث في خريطة الشرق الأوسط والنظام السياسي الإقليمي ستجد واقعا مختلفا تماما عما هو كان سائدا في المنطقة فمنذ سنوات لم تعد العراق دولة عربية متحدة وتدهورت المظاهرات في سوريا إلى حرب أهلية وتطورات الأحداث في لبنان وليبيا والسودان واليمن ومصر وظهر داعش في سوريا والعراق.

يجب أن نضيف بعدا آخر من أجل فهم الطابع المعقد للتطورات في المنطقة وهو مسألة العلمانية التي ترى التقاليد السياسية والفكرية للغرب نتاج علمانية التعليم والتنوير وهي أفكار مرتبطة بمفاهيم الديمقراطية والليبرالية لواقع الشرق الأوسط في صورة مختلفة ليس فقط في البلدان العربية ولكن في البلدان غير العربية في المنطقة والإجراءات العملية العلمانية لأكثر من قرن من الزمان مع الأنظمة الاستبدادية فنظام الشاه في إيران (الأب والابن)، وأتاتورك في تركيا، وزين العابدين بن علي في تونس، ومبارك في مصر، وصدام حسين في العراق، ونظام الأسد في سوريا كلها أنظمة سعت إلى فرض الأنظمة العلمانية على المجتمعات الدينية التقليدية.

اسم الكتاب: الموجة الثالثة من الاحتجاج والثورة في الشرق الأوسط
المؤلف: إيلي فوده، وأوين وينكلر
الناشر: دار نشر الكرمل
سنة النشر: فبراير ٢٠١٧
اللغة: العبرية
عدد الصفحات: ٥٧٩

* أكاديمية مصرية

اليورو ومعركة الأفكار
لماركوس برونيرمير وهارولد جيمس وجان بييرلانداو

محمد السالمي *

يتساءل المُراقبون الدوليون عمَّا إذا كان بوسع الاتحاد النقدي الأوروبي البقاء على قيد الحياة، وذلك نتيجة سلسلة من الصعوبات الاقتصادية التي واجهت اليونان وأسبانيا وإيطاليا ودولاً أخرى في منطقة اليورو. يأتي كتاب اليورو ومعركة الأفكار ليُبين أنَّ المشكلة الأساسية مع اليورو تكمن في الاختلافات الفلسفية بين البلدان المؤسسة في منطقة اليورو، ولا سيما بين ألمانيا وفرنسا. حيث يناقش المؤلفون كيف أنَّ المشاكل التي يواجهها اليورو دفعت دول الأعضاء إلى التركيز على الاستجابات الوطنية، وليس الجماعية، القواعد مُقابل السلطة التقديرية، والمسؤولية مقابل التضامن، والتخزين مقابل السيولة، والتقشف مقابل التحفيز. كما يظهر الكتاب كيف يمكن التوفيق بين هذه الاختلافات لضمان بقاء أوروبا. فالكتاب من تأليف ماركوس برونيرمير «Markus K. Brunnermeier"، وهارولد جيمس "Harold" James، وجان بيير لانداو «Jean-Pierre Landau" . فماركوس برونيرمير هو أستاذ الاقتصاد في جامعة برينستون ومدير مركز بنهايم للتمويل في برينستون. بينما هارولد جيمس هو أستاذ التاريخ والشؤون الدولية في نفس الجامعة، وجان بيير لانداو هو النائب السابق لبنك فرنسا والمدير التنفيذي لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وهو أستاذ مشارك في الاقتصاد والعلوم في باريس.

يرى مؤلفو الكتاب أنَّ التقاليد الألمانية القديمة، والمعروفة باسم الليبرالية المرتبة "Ordoliberalism"، كانت عاملا مؤثرا بعمق في ألمانيا وكان لها تأثير سياسي كبير؛ حيث إن القواعد يجب أن تصاغ بشكل عام؛ وينبغي أن تقتصر إجراءات الدولة على إنفاذ هذه القوانين العامة مثل قوانين المنافسة ومكافحة الاحتكار، خلافاً للناقد النمساوي فريدريش هايك، الذي أصر أكثر فأكثر على الخلق التلقائي للنظام والقواعد. وأما تقاليد عصر ما بعد الحرب فإنها تمارس بالتأكيد بشكل جوهري لكثير من الألمان، وخاصة لصانعي السياسات في البنك المركزي الألماني وربما أيضاً في وزارة المالية. كما تمَّ تمثيله بشكل واضح في صفحات الاقتصاد في صحيفة فرانكفورت، وغيرها من الصحف الألمانية الكبرى. فمنذ عام ٢٠٠٩، كل من هذه الصحف الألمانية الكبيرة قلقة بشأن الآثار الأخلاقية المترتبة على تدابير إنقاذ اليورو. هذه التقاليد تمثل ما أسماه كينز بعبارته الشهيرة «التعدي التدريجي للأفكار» التي جعلت السياسيين والرجال المؤثرين «عبيداً لبعض الاقتصاديين المنحدرين» على وصف كينز، وبما أن البنك المركزي الألماني كان له مساهمة رئيسية في تصميم الاتحاد النقدي الأوروبي، فإن بعض المعلقين يتكلمون عن «إضفاء الصبغة الشرعية على أوروبا».

يتمحور التقليد الفكري الاقتصادي الألماني على التركيز في الأسس القانونية والأخلاقية والسياسية للأسواق الحرة والتي قد تقود هذه القواعد إلى معاهدات أو قوانين أو تفاهمات مشتراة. كما يتميز بتشديد قوي على المُساءلة بحيث إنّها تحتاج إلى دفع ثمن الفشل. وأيضاً، ينبه هذا التقليد لمخاوف احتمال الخطر الأخلاقي الناجم عن أنشطة مقرض الملاذ الأخير حيث انتقد المسؤولون الألمان بشدة حزمة الإنقاذ المالي التي قدمها صندوق النقد الدولي للمكسيك في الفترة ما بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥، ورأوا أنَّ هذا الأمر يشجع بعض الدول على السلوك المتهور بزيادة احتمالات عمليات الإنقاذ المستقبلية. القلق من عمل المقرض الأخير قد يفسد السياسة النقدية؛ لأن البنك المركزي يلتزم بالتعدد في إعطاء الأولوية لاستقرار القطاع المالي على استقرار الأسعار. كما يرى التقليد الاقتصادي الألماني بأن هناك حاجة إلى قواعد صارمة لحماية السياسة النقدية من هيمنة السياسة المالية، وذلك من خلال رفع المستوى الدائم للنفقات دون زيادة الضرائب، حيث يمكن للحكومة أن تؤثر على التدفقات الحالية والمستقبلية للقاعدة النقدية، وبالتالي زيادة المخزون النقدي. وبذلك، فألمانيا تنتهج نهجًا صارمًا تجاه الدَّيْن الحكومي. حيث إنها رائدة في النهج الذي تقترحه الآن على أوروبا، مع قانون عام ٢٠٠٩ الذي يفرض حد العجز على المستوى الاتحادي ٠,٣٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي، واقتراح ٢٠١٦ في القضاء على العجز للدول بحلول عام ٢٠٢٠. يرى الألمان بأن النمو لا يتحقق عن طريق توفير أموال أو موارد إضافية، وإنما بإصلاحات هيكلية وأن التقشف يكافأ بفوائد مستقبلية.

أما التقليد الفرنسي الجديد فلم تكن جذوره عميقة جدًا، بل تأصل في عمل الاقتصاديين العمليين الذين تم تدريبهم في مؤسسات موجهة نحو خدمة الدولة، فتم إنشاء فيلق الجسور والطرق في عام ١٧١٦. وكان القصد الأصلي من هذا الفيلق هو عمل خرائط دقيقة لشبكة الطرق الوطنية لكامل فرنسا. وقد لاحظ النقاد أن المدارس فخورة بجهلها التام بالمبادئ الاقتصادية لتقليل المنفعة الحدية والقيمة الزمنية لرأس المال. في عام ١٩٤٦، تم وضع خطة مونيت الأولى للصناعات الثقيلة (ولا سيما الصلب)، وظهرت بشكل بارز في خطط الاستثمار الوطنية. وكانت الحكومة مهووسة بالتزايد بسرعة أكبر من الصلب الألماني ودرء التحدي الإيطالي الجديد الذي يهدد إستراتيجيتها الصناعية. وقد دعا المهندس المعماري الرئيسي لخطة فرنسا جان مونيت في مرحلة ما بعد الحرب، إلى «السياسة من أجل العظمة»، ورأى في الواقع بعض الآليات لتوسيع السيطرة الفرنسية على صناعة الصلب الأوروبية القارية باعتبارها مفتاحًا لما بعد الحرب. وفي أعقاب الحرب مباشرة، جرت مناقشة مكثفة للتأميم كوسيلة لزيادة الإنتاج. حيث يعتقد صناع السياسة الفرنسيون أنَّ الاتحاد السوفياتي قد تجنب الكساد الكبير في الثلاثينات وفاز بالحرب بسبب التخطيط. كما ساعدت مبادرات مثل خطة مارشال على إثبات فكرة أن التخطيط قد يحول الهيكل التجاري الأوروبي بأكمله. فتم إنشاء الاتحاد الأوروبي للفحم والصلب (إكسك). وظلت جوانب التقاليد القديمة في مجال واحد: الحجة القائلة بأن استقرار العملة هو هدف هام من أهداف السياسة العامة، وأن اعتماد المعيار الذهبي هو انضباط دولي مرغوب فيه، وله نداء قوي.

كما هو الحال في ألمانيا، فإنَّ معظم الاقتصاديين الفرنسيين الحديثين قد ابتعدوا إلى حد كبير عن المخاوف التقليدية لكل من الاقتصاديين الليبراليين في القرن التاسع عشر والسياسة الفرنسية في مرحلة ما بعد الحرب ومرحلة التخطيط. والواقع أن الأكاديميين الفرنسيين قدموا إسهاما حاسما في الأدبيات بشأن اتساق الوقت وما يترتب على ذلك من أهمية لصياغة القواعد بشكل صحيح. وتؤثر

رؤى الماضي على الطريقة التي ينظر بها الفرنسيون إلى الاقتصاد. حيث يشكو معظم الاقتصاديين الفرنسيين - كما فعل توماس بيكيتي، مؤلف رأس المال الأكثر مبيعا في القرن الحادي والعشرين بأن «الاقتصاديين لا يحظون باحترام كبير في العالم الأكاديمي والفكري أو النخب السياسية والمالية». وينتقد السياسيون الفرنسيون الليبرالية الجديدة. وهذا يظهر في انتقاد نيكولاس ساركوزي «أوروبا الأنجلو ساكسونية، السوق الكبيرة»، وقال مرارا إن مهمته هي تأكيد قيم الإنسانية الفرنسية والأوروبية كبديل للنظام الاقتصادي الدولي. ومن هنا فإن التقليد الفرنسي ينظر إلى النهضة القومية ورفع الكفاءة التنافسية بشكل أولي ولوكان على حساب التنظير الاقتصادي.

ويمكن تلخيص التقليد الاقتصادي الفرنسي الحديث في أن القواعد يجب أن تخضع للعملية السياسية ويمكن إعادة التفاوض بشأنها. وأيضاً، تتطلب إدارة الأزمات استجابة مرنة، وأن تقييد حرية الحكومة في التصرف والاقتراض سينظر إليها أنها عملية مضادة للديموقراطية. كما يجب استخدام السياسة النقدية لخدمة أهداف أعم من مجرد استقرار الأسعار (التضخم)، مثل الاهتمام بالنمو الاقتصادي. تشمل دروس الكساد العظيم مبدأ أن التكيف مع الاختلالات الدولية ينبغي أن يتم بصورة متناظرة، مع قيام البلدان التي لديها فوائض. كما يرى التقليد الاقتصادي الفرنسي أنه مع إمكانية وجود توازنات متعددة، من المرجح أن يؤدي اختيار مسار غير سار للحاضر إلى إدامة عوائق النمو بدلاً من إزالتها.

وهذا التقليد يظهر جلياً حين وقعت ألمانيا ضد حزم إنقاذ اليورو، في المقابل وقعت فرنسا ضد المذاهب الألمانية وضد سياسات التقشف. وفي عام ٢٠١٠، وقع أكثر من ٧٠٠ من الاقتصاديين الفرنسيين بيانا نشر على نطاق واسع بشأن «استراتيجية اقتصادية واجتماعية بديلة» لأوروبا، يهاجمون «الاستفزازات الاقتصادية الكاذبة» للعقيدة الليبرالية الجديدة.

وثمة بعد آخر من أبعاد التفكير الاقتصادي الذي تختلف فيه الفلسفات الألمانية والفرنسية اختلافا ملحوظا ألا وهو العلاقات الاقتصادية الدولية، ولا سيما فيما يتعلق بتدفقات رأس المال عبر الحدود. وقد اندلعت هذه الخلافات خلال المفاوضات التي سبقت التصديق على معاهدة ماستريخت في عام ١٩٩٢. فالفلسفة الاقتصادية الألمانية تدعو إلى التجارة الحرة والمنافسة العادلة، وفتح أسواق رأس المال الدولية. واعتبرت الضوابط الرأسمالية تعسفية، ودعت إلى الضغط السياسي. كما أن هذه الفلسفة تفضل أن تكون أسعار الصرف حرة في التحرك، حيث لا توجد تدخلات منسقة ضرورية للتعامل مع صدمات الاقتصاد الكلي. وعلى النقيض من ذلك، فإن الفلسفة الفرنسية أقرب بكثير إلى الموقف الكينزي الأصلي والذي تطور كرد فعل على الكساد الكبير لأسعار الصرف الثابتة، ومراقبة تدفقات رأس المال، وتعزيز التكيف متعدد الأطراف عن طريق سياسات التضخم في البلدان

الفائضة. فلو نظرنا لمثلث الاقتصاد الكلي الدولي، فإنه لا يمكن لاقتصاد أية دولة أن يكون لها سعر صرف ثابت، وسياسة نقدية مستقلة، وأن يسمح لرأس المال بالتدفق بحرية في الوقت نفسه؛ حيث يجب اختيار اثنين من أصل ثلاثة. وهذا الخيار له آثار عميقة على قدرة الاقتصاد على التكيف مع صدمات الاقتصاد الكلي المعاكسة. تختلف الفلسفات الألمانية والفرنسية بشكل ملحوظ في مواقفها تجاه استصواب تدفقات رؤوس الأموال وكيف ينبغي للاقتصادات المختلفة، وخاصة تلك المرتبطة عن طريق آلية سعر الصرف، أن تستجيب للصدمات غير المتماثلة. فالألمان اختاروا جانب التحكم في السياسة النقدية، في حين فضل الفرنسيون أسعار الصرف الثابتة. ومن الناحية العملية، هناك درجات متفاوتة من الالتزام بنظام سعر الصرف الثابت، وبدرجات متفاوتة من الانفتاح على رأس المال الدولي، وبدرجات متفاوتة من الاستقلال الذاتي للسياسة النقدية.

ما بين عامي (١٨٨٠- ١٩١٤)، ظهر معيار الذهب كوسيط في عملية الصرف بحيث تم صرف النقود على هيئة معدن الذهب ومن ثم تحويلة إلى دولة أخرى ليتم صرفه على هيئة عملة الدولة المستلمة للذهب، حيث إن لكل عملة قيمة محددة من هذا المعدن. بعد الحرب العالمية الثانية، اجتمعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول في فندق بريتون وودز في العاصمة واشنطن لتحديد النظام المالي العالمي خلافا لمعيار الذهب، وقد تم توقيع الاتفاقية والتي عرفت باسم بريتون وودز. أهم بنود الاتفاقية هي ربط جميع العملات بالدولار الأمريكي والذي لا يزال بدوره ثابتاً على الذهب، حيث إن الدول تحتفظ بالدولار الأمريكي بدلاً من الذهب. وكان هذا النظام أقرب إلى الفرنسيين أكثر من المثل الأعلى الألماني. لكن فرنسا لم يعجبها اعتمادها على الدولار.

وقد سمح نظام بريتون وودز بإعادة التنظيم في بعض الأحيان، ولكنه لا يزال، كما هو الحال في أي نظام ثابت لسعر الصرف يلوح في الأفق بمشكلة التكيف. وازدادت التوترات بشكل خاص في المراحل اللاحقة من نظام بريتون وودز، خاصة في أواخر الستينيات، حيث عززت ألمانيا بشكل متزايد فوائض التجارة التي تعكس مكاسب الإنتاجية فضلا عن احتواء تكاليف الأجور من خلال نهج تعاوني لتحديد الأجور. ولكن هذه السياسة لم تلقَ قبولا من قبل البنك المركزي الألماني وذالك بسبب التضخم. وكان هذا البديل غير جذاب أيضاً للنخبة السياسية الفرنسية لأنه قيد النمو ويضمن عدم شعبية الانتخابات. وفي أواخر ١٩٧١، انهار نظام بريتون وودز؛ فإنه ببساطة لا يتضمن طريقة موثوقة للتعامل مع التكيف. وبعد ذلك، بدأ نظام سعر الصرف العالمي يتحرك قريبا جدا من النموذج الألماني والذي يعتمد على تدفقات رأس المال الحرة وأسعار الصرف العائمة.

قدم الكتاب تسلسلا تاريخيا حول إنشاء العملة الموحدة بين البلدان الأوروبية لتحقيق التكامل المجتمعي. فلو نظرنا إلى الدولتين المؤسستين للاتحاد الأوروبي (ألمانيا وفرنسا)، فإن الفلسفة الاقتصادية الألمانية تعتبر الصادرات الصافية مقياسا للقدرة التنافسية وإشارة إلى الصحة والقوة الاقتصادية. كما يفضل الألمان أسعار الصرف المرنة في بيئة دولية ذات أسواق رأس مال مفتوحة. في المقابل، بالنسبة للتقاليد الاقتصادية الفرنسية، فإن الصادرات المرتفعة جدا ليست دليلا على القوة، وإنما هي مؤشر على تطبيق مبدأ افقار الجار مقابل النزعة التجارية. كما تنظر التقاليد الفرنسية أن يكون النظام النقدي الدولي متعدد الأقطاب، وينبغي أن يشمل التنسيق الفعال للسياسات الإدارة النشطة لتدفقات رؤوس الأموال لتحقيق الاستقرار في تحركات أسعار الصرف. أسعار الصرف الثابتة هي انعكاس مرغوب فيه لقدرة الدول على فرض الانضباط في الأسواق الغير منضبطة.

كتاب اليورو ومعركة الأفكار هو بحد ذاته إنجاز مثير للإعجاب. يقودنا الكتاب في رحلة إلى تاريخ من الرؤى الألمانية والفرنسية وكيف تم بناء الاتحاد الاقتصادي والنقدي الأوروبي. يقدم تحليلا دقيقا للاتحاد المصرفي الأوروبي وركائزه. وما يجعل الكتاب مثيرا للاهتمام هو أن مؤلفي الكتاب أتوا من خلفيات مختلفة. لاقى الكتاب استحسان المفكرين الاقتصادين والقراء على حد سواء، ويتوقع منه أن يكون الكتاب الاقتصادي الأول لهذا العام.

اسم الكتاب: اليورو ومعركة الأفكار

مؤلفو الكتاب: ماركوس برونيرمير، وهارولد جيمس، وجان بيير لانداو.

الناشر: Princeton University Press

سنة النشر: سبتمبر، ٢٠١٦

اللغة: الإنجليزية.

عدد الصفحات: ٤٤٨

*** كاتب عُماني**

سجن النسوية: نحو فكر إسلامي مناهض للاستعمار لسيرين أدلبي

إغناثيو فيراندو *

استلهاما من التيارات الفكرية المناهضة للاستعمار التي تطورت في السنوات الأخيرة في أمريكا اللاتينية على يد المُفكر البويرتوريكي رامون غروسفوغل وأمثاله، تقدم الكاتبة والناشطة الإسبانية السورية الأصل سيرين أدلبي السباعي عملا مثيرا للجدل تنتقد فيه كافة الحركات النسوية سواء المنتشرة منها في العالم الغربي وتلك الشائعة في العالم الإسلامي التي لا تخرج في حقيقة الأمر، على حد قول سيرين أدلبي السباعي، عن كونها تقليدًا للنماذج الغربية، على اعتبار أنها لا تزال محبوسة فيما تسميه المؤلفة «سجن النسوية»، أي، الاستمرار في اتباع النماذج والقوالب المعرفية والإبستمولوجية التي فرضها الاستعمار الغربي على أنحاء واسعة من الكرة الأرضية والتي يصعب على المجتمعات المستعمَرة التَّحرر منها. وإجابة عن سؤال كيف يُمكن كسر القيود التي تمنع المجتمعات العربية والإسلامية من صياغة حركة نسوية حقيقية وفكر أصيل، تقترح المؤلفة تفكيك كل المنتجات الثقافية الاستعمارية والعودة إلى مبادئ الإسلام الموحد الأصيل الذي لا يتناقض مع روح النسوية والمساواة بين الجنسين والذي يقدم نموذجا ونمطا حياتيا يؤدي لا محالة إلى صياغة فكر لا يعتمد على الهيمنة العالمية وعلى استغلال موارد وثروات الغير.

لماذا تريد امرأة ترتدي الحجاب الإسلامي إعداد أطروحة الدكتوراه؟ من هذا السؤال، الذي وجهه أستاذ جامعي إسباني إلى المؤلفة حينما التحقت بسلك الدكتوراه في جامعة مدريد المستقلة عام ٢٠٠٦، ينطلق هذا الكتاب. ففي هذا السؤال تكمن من جهة الرؤية الدونية إلى الآخر، في هذه الحالة إلى امرأة مُحجبة، باعتبارها كائنا سلبيا ومخفيا غير مؤهل للقيام بدراسة علمية موضوعية، ومن جهة ثانية يكشف السؤال الموقف التسلطي من الناحية الثقافية الذي يتخذه الرجل الأبيض الغربي الذي يتحدث من على منبر الخلفية العلمية الغربية الذي يفترض أن يؤهله للقيام بدراسات علمية موضوعية وفرض آرائه ونماذجه الفكرية على العالم بأسره. وليس هذا إلا انعكاس للإطار العام الذي تسميه المؤلفة «النظام العالمي الحديث المستعمِر الرأسمالي العنصري الإمبريالي الأبوي الأبيض العسكري المتمحور على الغرب والمسيحية»، وهو نظام يرتكز إلى خطاب ثنائي ينطلق من فكرة تفوق الغرب غير المشكوك فيه على ما سواه من مناطق العالم (ثلثيه على وجه التقدير) مع تقسيم الشعوب القاطنة في المعمورة إلى قسمين متناقضين: الغرب ضد الآخر وما هو عادي ضد ما هو غير عادي وما هو متقدم ضد ما هو متخلف وما هو ديمقراطي ضد ما هو غير ديمقراطي وما هو حديث ضد ما هو تقليدي وما هو تقدمي ضد ما هو تراجعي. فقد نجح هذا المنظور الاستعماري في التفرد بالحق في دراسة وتعريف العالم وتمييز ما هو إيجابي ومستحسن عما هو سلبي وغير محبذ، والنظر إلى الثقافات والحضارات غير الغربية على أنها في حاجة إلى التقدم باتجاه محاكاة الأساليب والمعايير السائدة في الثقافة الغربية. ونتيجة لذلك تكرست في البلدان المسماة بالمتخلفة عقدة الدونية وانتشرت فيها فكرة تقول إنه لا سبيل إلى التقدم إلا عبر الاحتذاء بالحضارة الغربية حذو النعل بالنعل بما يعني ذلك من إهمال خصوصيات كل الثقافات الأخرى وإقصائها. يضاف إلى ذلك أن معظم المفكرين المنتمين إلى البلدان غير المتقدمة باتوا ينظرون إلى أنفسهم بعيون الغرب المهيمنة ويطبقون في تحليلاتهم ودراساتهم، دون وعي منهم في بعض الأحايين، المعايير والمناظير الأوروبية، وكأنهم تحولوا إلى كائنات لا وجود لها ولا استقلال فكري لها بما يترتب عن ذلك من إنكار الذات غير الغربية وتحريمها من التعبير عن نفسها. هذا هو السجن الإبستمولوجي الذي تصفه المؤلفة حيث لا صوت لمن لا يتبع الخطابات الغربية ولا حرية لمن لا صوت له.

تقوم المؤلفة في البابين الثاني والثالث من كتابها بتحليل الحركة النسوية التي أطلقت عليها اسم نسوية ما بعد الاستعمار ونسوية العالم الثالث، من بين مسميات أخرى. فكل هذه الحركات الفكرية تنتقد بشدة النسوية البيضاء الأوروبية والأمريكية باعتبارها آلية لتمديد الاستراتيجيات الاستعمارية والنظر إلى المرأة في الثقافات الأخرى بعيون الغرب، مع تطبيق أنماط معرفية عليها تستند إلى مفاهيم الثقافة الغربية التي تحتكر حق الكلام باسم الآخر ليس فقط في مجال الشؤون النسوية، بل أيضاً في بقية المجالات الفكرية والثقافية. وأمام هذا السجن المعرفي، لا يوجد للنسوية الإسلامية المعاصرة وللفكر الإسلامي المعاصر على العموم مخرج إلا عبر مراجعة وإعادة بناء الكيان الشخصي. إلا أن التيار الفكري الإسلامي في السنوات الأخيرة لم يستطع التحرر من ثنائية التقليد/ الحداثة التي هي آلية استعمارية تهدف تحت ذريعة بعث تثقيف العالم إلى تجنيس التنوع الاجتماعي والسياسي والثقافي والإبستمولوجي واللغوي في العالم عبر إسكات التعدد والاختلاف. وهذا ما أكد عليه المفكر طه عبد الرحمن في بعض أعماله حينما يقول إن الحداثة لا بد أن تكون داخلية إذ إن الحداثة الخارجية المعتمدة على الغير ليست إلا محاكاة لحداثة أخرى وخلاصته أن الفكر العربي والإسلامي لم يصل بعد إلى مرحلة هذه الحداثة الداخلية. أما تيارات الإصلاح الإسلامي فبالرغم من سعيها إلى إنشاء مشاريع إسلامية تقاوم الهيمنة الغربية، فإنها لم تتمكن من التخلص من الديناميكية الثقافية والحداثية والليبرالية الغربية، مما أدى إلى تحويل هذه التيارات إلى تعبير عن فكر عربي إسلامي مستعمَر انعكس في نشوء دول الأوطان العربية التي اندرجت في هيكلتها وتنظيمها في الأطر الرأسمالية والعلمية التقنية الغربية مع كل ما قامت به الأنظمة السائدة من استخدام الإسلام كوسيلة وآلية لخدمة السلطة.

لعل من أهم صفحات الكتاب هي تلك التي خصصتها المؤلفة لمناقشة مصطلح ومفهوم «النسوية الإسلامية»، التي اعتبرتها بعض المفكرات الإيرانيات تناقضا في حد ذاته، مما أدى إلى إثارة جدال حاد وطويل بين من يعتبر الإسلام متناقضا مع النسوية وبين من يرون إمكانية وجود حركة نسوية إسلامية. تذكر المؤلفة الفوضى الاصطلاحية التي تسود المشهد، فهناك من يستخدم تعبير «النسوية الإسلامية» للدلالة على الحركات النسوية العلمانية الموجودة في المجتمعات

الإسلامية والتي تسير على منوال مثيلاتها الغربية في مواقفها وآرائها وأهدافها، وهناك حركة أخرى عابرة للأوطان تدافع عن فكرة مفادها أن المساواة بين الجنسين أساس من أسس الديانة الإسلامية وأن رسالة القرآن الكريم جاءت لتضمن حقوق النساء. صحيح أن هناك بعض المفكرات العربيات المشهورات مثل نوال السعداوي ووسيلة تمزالي اللتين ترفضان وجود النسوية الإسلامية لأن المساواة لا وجود لها في الأديان التي تنظر إلى المرأة باعتبارها كائنا دونيا. غير أن معظم الحركات النسوية الإسلامية تندرج في مكافحة مزدوجة ضد الرُهاب من الإسلام أو الإسلاموفوبيا من جهة والنظام الأبوي العربي، وخصوصا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ وما تلاها من عمليات إرهابية متكررة في مختلف أنحاء العالم. وقد اتخذ ممارسو الرهاب من الإسلام شخصية ما سميت «المرأة المسلمة المحجبة» كنموذج سلبي ومقموع لتخلف فكر العالم الثالث والإسلامي، وبدأت وسائل الإعلام عبر نشر هذه الصورة بصفة متكررة ببناء خطاب يبسط تعدد ظروف المجتمعات الإسلامية وحقائقها مع تقديم الإسلام ككتلة أحادية لا حراك فيه ولا تنوع. وهذا هو ما برر مشاريع «تحرير» و«إنقاذ» النساء المسلمات في أفغانستان على سبيل المثال.

وفيما يخص مكافحة النظام الأبوي العربي، تستعين المؤلفة بأعمال المفكرة المغربية فاطمة المرنيسي التي تفرق في كتابها «الحريم في الغرب» بين النظام الأبوي العربي الإسلامي والنظام الأبوي الغربي، وتؤكد وجود فرق بين صور وتمثيل النساء المسلمات في المخيل العربي الإسلامي والمخيل الغربي. ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك تصوير شخصية شهرزاد، بطلة ألف ليلة وليلة، في الرسومات والمكتوبات الغربية التي تميل إلى إبراز دورها السلبي والإروتيكي والرومانتيكي، في حين أن الجوانب المهمة لشخصية شهرزاد من المنظور الإسلامي هي قواتها التحريرية وتمكنها من إقناع الملك بعدم قتلها وقتل النساء الأخريات بمحض قصصها اللامتناهية ومستواها الثقافي المرتفع الذي يسمح لها بالتفوق على الرجل. إلا أن المرنيسي، حسب رأي سيرين أدلبي، لم تأخذ بعين الاعتبار أن النظام الأبوي العربي التقليدي تم استعماره من قبل النظام الأبوي الغربي من خلال نشر الصور النمطية للمرأة التي تعكس اعتبارها موضوعًا يجب أن يتقيد بمتطلبات هذه الصورة لامرأة جميلة ونحيفة ترتدي ملابس الموضة، أي، ما يسمى بدكتاتورية القياس رقم ٣٨، وتبذل قصارى جهدها للحفاظ على مظهر شاب، أي ما يسمى بدكتاتورية الزمان.

في القسم الأخير من الكتاب، تقدم المؤلفة بحثا ميدانيا تحلل فيه أمرين متعلقين بحياة المرأة في المغرب، (حيث تقيم المؤلفة حاليا). الأمر الأول هو العمل التعاوني من أجل التنمية الذي تجريه في المغرب بعض المنظمات غير الحكومية الإسبانية والذي

تعتبره المؤلفة مظهرا آخر من مظاهر الاستعمار الغربي. فهذا ما ينعكس في آراء المتعاونين الإسبان الذين أجابوا عن مجموعة من الأسئلة في استبيان رأي أعدته المؤلفة، فأغلب هؤلاء العاملين في العمل التعاوني لا يزالون يمارسون نوعا من الرهاب من الإسلام ويفضلون العمل مع جمعيات مغربية تميل إلى العلمانية واليسار السياسي التقدمي في حين أنهم يعبرون عن تحفظات كثيرة تجاه الجمعيات الأقرب إلى المواقف الإسلامية التقليدية. ونتيجة لذلك، فإن المخصصات المالية الممنوحة للجمعيات ذات الطابع الإسلامي الواضح أقل بكثير من تلك التي تحصل عليها الجمعيات التي تتميز بطابع علماني أو يساري. ولا يعود ذلك إلا إلى فهم خاطئ وأفكار نمطية عن الإسلام لا تأخذ بعين الاعتبار تعدد التيارات والتوجهات الفكرية داخل الإسلام.

أما الأمر الثاني الذي تعالجه المؤلفة في عملها الميداني في المغرب، فهو الخطابات النسوية الصادرة عن أهم الجمعيات النسوية العاملة في البلد. الخطاب الأول الخاضع للتحليل هو خطاب الجمعيات النسوية التابعة للتيار السياسي الاشتراكي التي تتميز بمقاربة يسارية وبانتقادات لاذعة للحركات النسوية الإسلامية. الخطاب الثاني هو خطاب فاطمة المرنيسي الذي يتمحور حول مفهوم خوف المجتمع الإسلامي من الغرب وهو خوف يخفي خوفا آخر ألا وهو الخوف من الذات، مع رفض الحجاب باعتباره تراجعا في طريق المساواة، وهذا ما تنتقده سيرين أدلبي السباعي إذ أن المرنيسي تُسكت بهذا أصوات النساء وتحرمهن من التعبير عن أنفسهن عبر الرموز التي يخترنها بكامل الحرية. الخطاب الثالث هو خطاب نساء حزب الاستقلال المعتمد على فكرة الوطن والتقليد المرتبط بمبادئ الإسلام، وهو خطاب قريب من نساء حزب العدالة والتنمية وهو حزب ذو طابع إسلامي يعتمد أيضا على مبادئ الإسلام وإن كانت مصطلحاته قريبة من الخطاب الغربي فيما يخص مسألة حقوق الإنسان والنوع الاجتماعي. الخطاب التالي هو خطاب الناشطة أسماء المرابط التي تقترح أيضا الارتكاز إلى الرؤية الإسلامية لوضع مشروع تحريري للنساء ولكن عبر عملية تحديث الإسلام تماشيا مع الحداثة مما يعني أن خطابها ليس مناهضا للاستعمار لأنها تجهل الطابع الاستعماري الكامن في مفهوم الحداثة الغربية. الخطاب الأخير هو خطاب جمعية العدل والإحسان، وهي جمعية إسلامية تمثلها حاليا نادية ياسين ولها ثلاثة مرتكزات: لا للعنف، لا للسرية ولا للتمويل الخارجي، وتقوم بأعمال رائعة بفضل رؤية تجديدية للمرأة داخل الإسلام وتنظر إلى مصطلح «النسوية الإسلامية» على أن فيه إطنابا إذ إن الدفاع عن حقوق المرأة وحرياتها وكرامتها، كلها قيم يشملها ويعززها الإسلام.

يمكن توصيف هذا الكتاب بأنه كتاب جريء تحاول فيه المؤلفة القضاء على الفكرة الشائعة التي تذهب إلى أن الإسلام والنسوية مفهومان متناقضان غير متطابقين. صحيح أن الكثير من الانتقادات والآراء المعبر عنها في هذا الكتاب لها ما يسوغها، إذ أن العالم الحديث الذي تسوده العولمة وهيمنة المبادئ والمعايير المنبثقة من الحضارة الغربية لا يعترف إلا نادرا بأن هناك أنماطا ثقافية أخرى تختلف عن الأنماط الغربية لا يجب تهميشها وإهمالها. وصحيح أيضا أن معظم الانتقادات الموجهة للغرب والاستعمار وموقف المجتمع العالمي تجاه الإسلام وتجاه المرأة المسلمة هي مصيبة وسديدة. غير أن قارئ الكتاب، بعد استيعاب الانتقادات التي توجهها المؤلفة إلى كل التيارات الفكرية الأخرى، يتوقع من المؤلفة أن توضح بشيء من التفصيل الطريقة التي تقترحها للخروج من الوضعية الحالية والفرار من «سجن النسوية»، مع تحديد كيف يمكن صياغة هذا الفكر الإسلامي المناهض للاستعمار الذي تصبو إليه المؤلفة. وهذا في رأينا ما لا يوجد في هذا الكتاب، إذ إن سيرين أدلبي السباعي تكتفي بإشارات وجيزة في هذا الاتجاه لا تبين رؤيتها ومرتكزات فكرها بالقدر المطلوب.

العنوان: سجن النسوية. نحو فكر إسلامي مناهض للاستعمار.
المؤلف: سيرين أدلبي السباعي
دار النشر: أكال / إنتر باريس
مكان النشر: المكسيك - إسبانيا
سنة النشر: ٢٠١٦
اللغة: الإسبانية
عدد الصفحات: ٣١٥

* أستاذ وباحث في جامعة قادس (إسبانيا)

سُلّم إلى السماء: أحاديث في السلطة والترّقي والنخبة.. لميخائيل خازين وسيرغي شيغلوف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

((تكاد السلطة، ومن فرط اعتياديتها ورسوخها، أن أحدا لا يمحضها التفكير، تماماً مثلما لا يفكر أحد أنَّه يتنفس أو أنَّه يتحدَّث بلغته الأم))...

بهذه الخلاصة من كتاب «سُلّم إلى السماء» للكاتبين الروسيين ميخائيل خازين وسيرغي شيغلوف يسعنا الوقوف على ثيمة الكتاب الذي بين أيدينا. وربما لا يجد القارئ المعاصر، من الوهلة الأولى، حاجة ماسة للاستفاضة في موضوع السلطة، فهذه المُفردة بدرجة من الشيوع، لا سيما في المجالات السياسية والاجتماعية، ما يجعلها منقوعة في اللغة نقوع الطحالب في قاع المياه.

لذلك، ولأجل إثارة انتباه القارئ وجذب فضوله، كان لا بد من مادة تخرج عن المألوف وتطرق دروبا جديدة في حياض السلطة.

يؤكد الاقتصادي الروسي ميخائيل خازين الذي عمل فترة في إدارة الرئيس الروسي بوريس يلتسين، والذي يترأس اليوم الصندوق الروسي للبحوث الاقتصادية، ومعه المدون والكاتب سيرغي شيغلوف أنهما نجحا في تحقيق ذلك عبر كتابهما المشترك هذا والواقع في أكثر من ستمائة صفحة.

يُبدي لنا الكتاب ثلاثة مضامين للسلطة، أولها كيفية تشّكل السلطة ومستقبل النخب العالمية، وثانيها طبيعة الفارق بين السلطة والإدارة، وآخرها كيفية الترقي في سلّم المهنة، سواء تعلق الأمر بعامل متوسط في شركة أو بقطب من أقطاب النخبة العالمية.

ويعتبر خازين وشيغلوف أن مجمل النظريات السياسية والاجتماعية عن السلطة قد تبلورت حول شخصيات بذاتها كالملوك والقادة العظام أو أنها تمخضت عن فئات اجتماعية وأقوام ونخب، أما القوانين الاجتماعية والاقتصادية المُجردة من الشخص باعتباره محركاً للتاريخ، وأما السلطة نفسها كمفهوم سوسيولجي علمي بحت، فإنَّ النظريات تستبدلها بمظاهر خارجية كمظهر الدولة في العهد الكلاسيكي ومظهر النخبة في العصر الحديث ومظهر المؤسسات في مجتمع ما بعد الحداثة. في حين يقترح الكاتبان نظرية تتعرض لتفسير جديد لطبيعة السلطة، متمثلة في المنافسة داخل الجماعات الحاكمة، ومكانة العلاقة التسلسلية في نظام هذه الجماعات، من السيد إلى المُنَفذ وانتهاءً بالموالين لها. وتسمح هذه القراءة الجديدة لمفهوم السلطة برؤية مجريات التاريخ من زاوية مختلفة، وهي زاوية ترتب ما كنُّا نحسبه عبثيا ومبعثرا في خط موضوعي ومنظم.

أما الآلية التي يتبناها الكاتبان في العمل فهي من الوضوح بمكان (وإن كان وضوحاً ممتنعًا ويحشد في داخله شتى الاجتهادات والمعارف) إذ تعتمد على تحديد الكتلة المفهومة في الجسم الغامض، ومن ثم إخضاع هذا الجسم بكليته لقانون تلك الكتلة. تماما كما لو أننا أمام لوحة فسيفساء يزيغ أمامها البصر، وحتى نستطيع قراءة اللوحة وفهمها، نلتقط تشكيلا واحدا من اللوحة ونستغرق في النظر إليه، حينها تنجلي الفوضى ويحل النظام ونرى اللوحة كاملة أمامنا.

ولكن، وبعد كل شيء، يظل من السهل عليك رؤية لوحة الفسيفساء، أو أي شيء مماثل، إن كنت تملك مفاتيح القراءة والنظر مسبقا، وفي حالتنا هنا، فإن الكتابة عن السلطة تكون أيسر إن كان المرء على دراية بقوانينها وكيفية عملها من الداخل، وهو ما ينطبق على مؤلفْي الكتاب.

لا تفسر فرضية خازين – شيغلوف ما جرى في الولايات المتحدة خلال القرن العشرين أو ما يجري في روسيا المعاصرة وحسب، فهي صالحة للاستخدام لأي فترة تاريخية وفي كل مكان من العالم، فضلا عن صلاحيتها للتنبؤ بالاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية كالأزمات الأخيرة التي عصفت وما زالت تعصف بالعالم.

كثيرًا ما يرى المؤلفان وراء الأزمات الاقتصادية حربًا قائمة داخل جماعات السلطة وليس لأسباب مالية. هذه الجماعات التي تتوفر على عدد من الأفراد المتحدين للاستيلاء على الموارد بكل أنواعها والمرتبطين بين بعضهم البعض بعلاقات الطاعة الصارمة.

يزخر الكتاب بعدد جم من الأمثلة التاريخية التي تستعرض النظرية التطبيقية لعمل السلطة. ومن بين تلك الأمثلة: ١(كيف كان لقانون السلطة أن يزيح المخترع الأمريكي ستيف جوبز ويجرده من جميع مناصبه في شركته «آبل» عام ١٩٨٤. ٢(من يقف وراء إعدام الديكتاتور الروماني الشرس نيكولاي تشاوتشيسكو. ٣ (كيف للانقلاب العسكري في فرنسا عام ١٩٥٨ أن يبدأ مع الجنرالات المنخرطين في الخدمة العسكرية لينتهي أمر السلطة بيد ديغول الخارج عن الخدمة؟ كم من السنوات تطلبها الإمبراطور البيزنطي باسل المقدوني ليتدرج من شحاذ على باب الكنيسة إلى أعلى هرم السلطة؟ ما هي اهتمامات ستالين، وهو أبرز رجالات السلطة حسب المؤرخين السياسيين، غير قراءة وتنسيق الوثائق الحكومية؟.

في مقدمة الكتاب التي حملت عنوان: «ثلاثة أخطاء وثلاث حقائق للسلطة» يرفض الكاتبان، ومنذ البداية، التصورات التقليدية حول مكونات الدولة وإدارتها. «يظن القارئ النهم للصحافة الليبرالية أنه يعرف السلطة بتفاصيلها وأن المواطنين ينتخبون رئيسهم بطريقة ديموقراطية، وبدوره يُدير الرئيس موارد البلاد من أجل رفاهية المواطن. وبأنَّ الناس بتعدد أجناسهم هم مصدر السلطة، أما تقديم شخص عن غيره فيتم عن طريق الانتخابات الشرعية، وأن المهمة الرئيسية للسلطة هي الاهتمام بالمواطن العادي وذلك عن طريق اختيار الكادر الحكومي المناسب لتولي المناصب التي تتحمل الدولة أجور نفقاتها. ولكن الواقع هو أنَّ قارئنا الليبرالي هذا يواجه نمطا مختلفا لهذه الماكينة. فمنصب الرئيس في الولايات المتحدة أو روسيا أو فرنسا يتم توليه باتفاق مُسبق داخل النخبة، وبعد ذلك

يُعيّن الرؤساء في المناصب الحساسة أفرادا من الحاشية وهم بدورهم يختارون أتباعهم نوابًا ومساعدين لهم، بالتالي يتم إنفاق الميزانية حسب نظام العشيرة ومحاصصتها، فتوزع المشاريع الحكومية المربحة على الشركات المتصلة بالنخبة وحدها» (ص ٨).

في الجزء الأول من الكتاب «ما لا يجوز قوله» يؤكد المؤلفان على أن السلطة هي مجال الاشتغال الأكثر جاذبية للإنسان، وهي من بين المجالات الأخرى الأكثر حفاظًا على نظم العمل التقليدية كالعشائرية والمحسوبية وكتمان السر والتضامن الجماعي. ويتطلب العمل في السلطة، تزييف المعلومات المستمر، وبمستويات عالية، وذلك لتضليل كل من لا ينتسب إليها، بل ولتضليل بعض المنتمين إليها إن دعت الحاجة إلى ذلك. ونتيجة لهذه الخصائص، يجد الكاتبان أن كل المعلومات عن السلطة ما هي إلا معلومات داخلية، تستخدم داخل النخبة. أما المعلومات التي تتسلل إلى الخارج بسبب خلل في نظام السلطة، فتكافَح بقوة وتوسم بالكذب والتدليس.

في الجزء الثاني «أقنعة السلطة» يحلل الباحثان أعمالا ومؤلفات مختلفة تناولت السلطة، كما يتطرقان إلى كتب السير الذاتية لبعض السياسيين، ويفندون نقاط الضعف فيها، والمراوغات التي تتخللها لإخفاء جوهر السلطة. إلى جانب ذلك، يذكر الكاتبان الأعمال المنسية أو المحظورة عن السلطة ويوضحان الأسباب التي دفعت إلى منعها. ومن بين الأعمال التي اخترقت المألوف حول السلطة يستعرض المؤلفان كتاب السياسة لأرسطو، والمقدمة لابن خلدون، وكتاب الأمير لمكيافيللي، وكتبه الأخرى المنسية لخطورتها على النخبة، وكتاب «لوياثان» لتوماس هوبز، ومقالاتان عن الحكومة لجون لوك، وكتاب نظرية الحكم والسلطة البرلمانية لجايطانو موسكا، وهيكل السلطة في المجتمع لفلويد هانتر، والنخبة الحاكمة لرايت ميلز، وكتاب من يحكم؟ لروبرت دال، والمراقبة والمعاقبة لميشيل فوكو، والمراقبة الخارجية على المؤسسات: مفهوم الاعتماد على الموارد لجيفري بفايفر وجارلد سالانتشيك، وكتاب عن العنف لحنة آرنت، وكتاب المؤسسات الأمريكية الإنجليزية لكارول كويجلي، وكتاب الإجبار، رأس المال والدول الأوروبية لتشارلز تيللي، والعنف والقوانين الاجتماعية، وهو كتاب مُشترك لمؤلفيه دوغلاس نورث وجون ووليس وباري واينجاست.

يشر المؤلفان إلى تقاليد عريقة وممارسات استراتيجية تلجأ إليها النخبة لضمان المنعة في دائرة السلطة فوصل الأمر بها إلى اختيار

الأعضاء والمنتسبين للسلطة منذ نعومة أظافرهم وتأهيلهم للعمل المستقبلي. «إن تشكيل صورة العالم لدى المرشحين للعبور إلى دائرة السلطة، وعلى الرغم من خيالية الفكرة إلا أنها واقع ومعتاد عليها في أوساط النخبة. ومن الأمثلة التاريخية للجماعات التي حققت نجاحا في ذلك، الرهبنة اليسوعية، حيث كانوا يعملون على تكوين أعضاء جماعتهم منذ الطفولة. وبشكل مُماثل تتشكل صورة العالم عند النخبة الإنجليزية في المدارس والكليات ذات الأنظمة المُغلقة حيث يتعلم المنتخبون المستقبليون قوانين الخضوع والمنافسة» (ص ١١٠).

من خلال مقاربتهما للتاريخ باعتباره حلبة صراع للنخب وجماعات السلطة، يجادل الباحثان الروسيان في كتاب نهاية التاريخ للكاتب الأمريكي فرانسيس فوكوياما، وهو العمل الذي أنجزه مؤلفه إثر انتهاء الحرب الباردة وانتصار النخبة المالية العالمية على الاتحاد السوفيتي. يكتبان في هذا الصدد: «في حقيقة أمره فإنّ التاريخ ليس عرضة للانتهاء قط. والأفعال التي تأتي لحل قضية من القضايا دائما ما تستحدث قضايا أخرى. وهذا ما واجهته مؤخرا النخبة الغربية. فبتصادم الصين مع الاتحاد السوفيتي قاموا بضم الأول إلى منظومة القطاع الصناعي العالمي، واحتضنوا النخبة المالية الصينية الجديدة التي تم اختبارها غربيا حتى في مجال السياسات الدولية. وعندما استخدموا المتشددين في أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتي، كانوا بذلك يضعون المداميك لاشتعال الثورات الإسلامية في العديد من البلدان وأيضاً لبلورة النخبتين، السنية والشيعية على الصعيد السياسي (...) والنتيجة أن نهاية التاريخ ما هي إلا تعدد القضايا أمام النخبة الغربية واختلافها (القضايا) عن الماضي» (ص ٢٤٥ – ٢٤٩).

لم يوفر المؤلفان الأزمة الاقتصادية الراهنة التي ينعتانها بالأزمة الاقتصادية السلطوية ويقارناها بالكساد الكبير لعام ١٩٢٩. أما الأسباب التي تقف خلف أزمة اليوم فيريانها في: «طبيعة النخبة نفسها التي تهتم قبل كل شيء بازدهار أعمال مُمثليها، ولذلك تعتبر أية تغيرات سلبية في الاقتصاد تهديدًا مباشرًا لها وليس عاملا خارجيا. ونتيجة لذلك لا يهدف رد فعلها إلى حل الأزمة من جذورها بل إلى إزالة تهديداتها (ونظام الاتحاد السوفيتي مثال بارز على ذلك) ما يؤدي في الخاتمة إلى ظهور التصعيدات من كل حدب وصوب» (ص ٦١٠ – ٦١١).

اعتمد المؤلفان على أسلوب غير معتاد لإنجاز عملهما، ولإثبات نظريتهما، استخدما شكل الحوار مع القارئ. وإن تسبب هذا الأسلوب في زيادة حجم الكتاب، إلا أنه – بالمُقابل – سهّل من استيعاب الأفكار وتمثلها لدى القارئ كما وفر نمطا سرديا يلائم القارئ المتشكك والعاكف على قراءة الكتب التخصصية. ومن جانب آخر لم يغال المؤلفان في الدفاع عن أفكارهما، فتركا مندوحة أمام القارئ، يتحرك فيها ويختار ما يلائمه من أفكار. وفي نهاية المطاف، وبعد كل شيء الأحوال، أكان طرح الكتاب مستحسنا أم مستنكرا، قد أصاب هوى لدى القارئ أم عكس ذلك، إلا أن التفكير في هيئة العالم ومكانة الأفراد فيه وكيفية تسيير مجرياته لا شك سيتخذ ميلاً جديدًا عند القارئ.

وقد أحدث البحث ردود أفعال واسعة ومتفاوتة بين القراء المهتمين والخبراء المختصين، ومن بين أكثر التعليقات التي حظي بها الكتاب طرافة اعتباره جزءاً ثانيا من أطروحة مكيافيللي «الأمير» مع فارق أن كتاب مكيافيللي موجه إلى القمة ومن فيها من ملوك وأمراء بينما يخاطب كتاب خازين وشيغلوف أولئك الصاعدين في سلّم السلطة.

الكتاب: سلم إلى السماء.. أحاديث في السلطة والترقي والنخبة.

المؤلف: ميخائيل خازين وسيرغي شيغلوف.

الناشر: ريبول كلاسيك، موسكو ٢٠١٦

اللغة: الروسية.

عدد الصفحات: ٦٢٤ صفحة.

*** مستعربة وأكاديمية روسية**

العالم الجديد
مارسيل غوشيه

محمد الشيخ *

إذا ما صَحّ قول الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون بأنّ ما من مفكر، مهما كثرت أنظاره وتعددت مؤلفاته، إلا ويدافع عن فكرة واحدة ووحيدة ما يفتأ يعبر عنها في مختلف هذه التآليف، وما يزال ينقحها التنقيح، حتى تستقيم استقامتها الأخيرة، فإنّه يصح القول - بالتطبيق - إنّ ههنا مفكرا وفيلسوفا سياسيا فرنسيا ما فتئ، منذ ما ينيف عن أربعين سنة، يدافع عن أطروحة أساسيّة مفادها أنّ الحداثة تعني «حركة الخروج (من) الديانة». وليس يعني مارسيل غوشيه (١٩٤٦ -) بقوله الجامع «الحداثة هي حركة الخروج من الديانة» دلالة أنّ «الحداثة هي حركة الخروج (عن) الديانة»؛ بمعنى الإلحاد بالرب؛ إذ «الإلحاد قديم في البشرية»، كما قال أبو العلاء المعري. أكثر من هذا، من شأن هذا الخروج (من) أن قوّى إيمان المؤمنين، كما رأينا ذلك مع الحركة الإصلاحية البروتستانتية والكاثوليكية. فكان إصلاح الدين تقوية للإيمان، عند المصلحين وأتباعهم، لا مروقا من الديانة. وإنّما تعني الأطروحة أنّ الديانة لم تعد تلعب، في المجتمعات الحديثة، الدور المحوري الذي كانت تلعبه في المجتمعات القديمة، فالخروج (من) الديانة، وليس «عن» الديانة، يعني الخروج من التنظيم الديني للعالم. ذلك أنّ المجتمعات القديمة كان مدار وجودها وحياته على الديانة؛ بحيث كانت الديانة تحدد فيها نوع السلطة السياسيّة التي تحكم الناس، ونمط العلاقات الاجتماعية التي تجمع بين الناس، وشكل التجمّعات البشرية التي تؤلف بين الناس.. وكل هذا «الجامع» تمّ تفكيكه في خلال خمسة قرون من الحداثة. ويجد مارسيل غوشيه في هذا التعريف للحداثة أنّه «تعريف حدّي»، وأنّه «تعريف شامل»؛ وذلك لأنّ من شأن هذا التعريف أن يفسر كل الظواهر الأخرى المرافقة للحداثة - العقلانية، الفردانية، الحرية ... - كما من شأنه أن يسمح بتعميم شمولي ينتج معنى لجميع تفاصيل هذه القرون الخمسة من الحداثة التي عاشتها المجتمعات الأوربية والتحقت بها غيرها من المجتمعات غير الأوربية.

هو ذا الشق الأساسي الأول من أطروحة الرجل والتي لطالما أدار أفكاره عليها، لكن الشق الثاني المكمل هو أنّ مجتمعات الحداثة - بعد أن تحررت من الديانة، وأمست مجتمعات تحكم نفسها بنفسها وليس بدعم من الغيب - ما عادت هي تَعْرِف ما الذي تفعله بهذه الحرية التي كسبتها: الحرية من أجل ماذا؟ وما الذي يمكن أن نفعله بهذه الحرية؟ وكيف لنا أن نمارسها؟ هي ذي معضلة مجتمعات ما بعد تحقيق الحرية. وبهذه المعضلة صار مجتمع الخروج من الديانة أصعب عالم يمكن السيطرة عليه.

والحال أنّه ظهرت الملامح الأولى لهذه الأطروحة في كتاب مارسيل غوشيه المبكر الذي اشتهر به عام ١٩٨٥ . «انبطال سحر العالم» . والذي ذهب فيه إلى أنّه ما عاد البشر يسلمون مفاتيح فهم مجتمعاتهم وقيادها إلى أرباب الأديان، وما بقيت الديانات هي ما ينظم حياة الناس في الزمان وفي المكان، وما ظلت هي ما يشكل التجمّعات الجماعية، ويدير السلطة. لقد انتهى عهد استتباع المجال البشري إلى الترتيب الإلهي. وإنّما أمست المجتمعات البشرية «مستقلة» و«متحررة»؛ أي أنّها باتت عن تدبير الغيب لها بمعزل. وهكذا صار بنو البشر لا يرجعون في تدبير أمورهم إلى مرجعية أخرى، اللهم إلا سلطان العقل، وأمسوا يُعملون حريتهم في تشكيل العالم وفق إرادتهم لا وفق مشيئة الأرباب. على أنّ الترتيب الديني لم يختف هكذا فجأة عن غدارة، إذ ظل في الخلفية دوما ذاك «المحدد الخفي» أو قل «النواة السرية» التي هي الديانة. وما كان الانسلال من ربقة الدين بالأمر الهين، ولا بالنهر المنساب من دون عائق يعوق، فدون تحققه التحقق النهائي عقبات، وفي وجه اكتماله الاكتمال الأخير معضلات.

وبعد مضي أزيد من عقدين من الزمن على صدور هذا الكتاب - الذي بات يعد أحد أهم المراجع الفكرية في فلسفة السياسة وفلسفة الدين والفلسفة الاجتماعية في زماننا هذا - طفق الباحث يطور هذا الحدس الجوهري التطوير؛ وذلك بإصداره لسلسلة من أربعة كتب تحت العنوان الجامع «بزوغ (صعود، بُدُوُّ) الديمقراطية»: «الثورة الحديثة» (٢٠٠٧)، «أزمة الليبرالية» (٢٠٠٧)، «على محك التوتاليتاريات (الأنظمة الكليانية أو الشمولية)» (٢٠١٠)، «العالم الجديد» (٢٠١٧). وفي هذه الرباعية يواصل فيلسوف السياسة تحليله للمروية المؤسسة للحداثة - الخروج من الديانة - مؤرخا ومحللا لهذا المسار المتعرج المضطرب المليء بالعوائق وبالأزمات.

وهكذا، ففي كتابه «الثورة الحديثة» . الذي هو بمثابة التمهيد إلى الأوديسة الرباعية . يقف الرجل عند الخلفية المؤسسة للحداثة - ثورة استقلال المجتمعات الحديثة ضد الاستتباع إلى الديانة - التي جرت على مدى أربعة قرون: من ١٥٠٠ م إلى ١٩٠٠ م. ولا سيما على مكونات الثورة الثلاثة التي ترتب عليها العالم المنبطل السحر: السياسة والحق والتاريخ. ذلك أن أصالة الديمقراطية الحديثة تعود - في نظره - إلى تلك الكيمياء العجيبة التي حدثت بين هذه العناصر الثلاثة، والتي سمحت ببزوغ الذاتية الحقوقية - الذات الحاملة لحقوق ولواجبات - والتي تأسس فيها مفهوم «الفرد» على أساس من مفهوم «الحق»، وتأدى ذلك إلى تشجيع استقلال الفرد بذاته. على أن الصيغة الدينية المسيحية المشجعة لاستقلال الفرد كانت لا تزال تلعب دورها في خفاء. ثم إنه عن التركيز على البعد الحقوقي للفرد تخلّقت أزمة الديمقراطية الحديثة والمعاصرة.

وفي الجزء الثاني من الأوديسة - أزمة الليبرالية - يحلل الباحث سنوات ١٨٨٠-١٩١٤ التي تشكل، حسب نظره، «مصفوفة» و«سدى» القرن العشرين وأسباب نجاحاته وإخفاقاته. ففي الوقت الذي أرسيت فيه قواعد الديمقراطية الليبرالية، بالتوليف البديع بين النظام التمثيلي والاقتراع العام، فإنّ العالم الذي برز إنما فَجَّرَ الإطار الموروث عن العالم الديني الذي كان - ويا للمفارقة! - قد «دعم» في خفاء بناء الحريات المكتسبة، لكن تأتي أيضا عن ذلك التفجير نشوء الحماقات التوتاليتارية، وذلك بالقدر نفسه الذي تأتى عنه دعم تعميق الديمقراطيات الليبرالية واستقرارها. وتلك هي الحقبة الحاسمة التي سوف يفحصها الجزء الثالث - على محك التوتاليتاريات- .

وأما الجزء الرابع - العالم الجديد - فسوف يكرس لإعادة توجيه حياة المجتمعات الغربية، وذلك من أواسط السبعينيات من القرن الماضي إلى الأزمة الجديدة لنمو الديمقراطية التي تتخبط فيها هذه المجتمعات اليوم. والشأن الغريب في المجتمعات الغربية - الذي يقف عنده غوشيه بالتحليل - هو أنّها أضحت تحيا على ضرب من «القلق العميق» - وتلك بحد ذاتها مصيبة، لكن المصيبة أعظم حين يتبين أنها لا تعرف حتى كيف

تسمي هذا «القلق». ففي نهاية القرن التاسع عشر كان الجواب واضحا: لدى الرجعي سبب القلق هو الزيغ السياسي، وعند الماركسي هو الاستغلال الرأسمالي الذي يستدعي القيام بالثورة، وعند عدو الحداثة: هو الفساد الأخلاقي. لكن اليوم فقد الأوربيون سذاجة وصرامة رجال القرن التاسع عشر. ولهذه الحيثية، يعلن مارسيل غوشيه: «لقد أمسينا كلنا شركاء، لا ندرك كيف نسمي ما يزعج هذا العالم».

يفتتح الرجل كتابه بعبارة تلخص كل مرامه في هذا الكتاب: لقد غيرنا – معشر الأوربيين – العالم، لكن هذا التغيير فتح مشكلتنا العظمى من جديد. لقد سرَّعنا بمجيء عالم مختلف جذريا عن سابقه، لكنه عالم حامل لصعوبات غير مسبوقة. ما العالم الذي ودعناه؟ وما العالم الذي حيياناه؟ ودعنا «العالم القديم»، وحيينا مجيء «العالم الجديد». والحال أن «العالم الجديد» تعبير مستهلك، لكن الظرفية تبرر إعادة إحيائه وتحيينه. والباحث يستعمل هنا عبارة «العالم الجديد» لا بمعناها الجغرافي، وإنما بمعناها التاريخي. «العالم القديم» هو عالم التدين الأصلي، و«العالم الجديد» هو عالم الخروج من الديانة. وهو عالم لا يهم أوربا وحدها، بل يعني حتى الشعوب غير الأوربية – بفعل عوادي العولمة – التي أمست تهتم بالحداثة. وما الاضطرابات التي تحدث باسم الدين اليوم – التطرف والإرهاب – إلا عبارة عن ردات فعل عن انهيار السند الديني بسب من الرجة التي أحدثتها فيه الحداثة.

لقد قطع الأوربيون، من غير أن يدركوا، جولة حاسمة في مغامرتهم الأولى بالخروج من الديانة، وأمضوا في الأمر إلى نهايته وفق سيرورة شكلت منذ خمسة قرون «روح أوديستهم»؛ وذلك بأن أنهوا اليوم خروجهم من البنينة الدينية. قفزوا نحو المجهول وما شعروا بذلك. اختفت بُنَى الاستتباع إلى الفوق، إلى الغيب، إلى الأرباب، وتقوت بُنَى الاستقلال. وقد ترتبت عن هذه النقلة أزمة. وهي «أزمة نمو»: ذلك أن تنامي إمكانات قدرة المرء على أن يمسي حرا، كان ثمنها تناقص قدراته على استعمال هذه الحرية نفسها. لقد حُكم على الأوربيين أن يتقدموا من غير ما نبراس يرشدهم. وإنما الانخراط في الحداثة انخراط في هوات سحيقة لا يدرك لها قعر. وإذ قاد الأوربيون البشرية نحو تحديدها لنفسها من غير ما سند من «فوق»، فإن تواجدهم في المقدمة كان له ثمن: ما كان للزيغ الذي تتخبط فيه المجتمعات من منبع آخر سوى تبدد هذه النواة السرية (الديانة) التي كانت هي عادة ما يمنحهم وسائل أن يفكروا في ذاتهم، وأن يحصلوا دلالة أنفسهم، وأن يريدوا أمرهم، وأن يدبروه. وإذ حُرمت هذه المجتمعات من هذا السند، فها هي تجنح من غير أن تعلم ما هي ولا إلى أي اتجاه تسير. وإنها لواقعة تحت صدمة «المرحلة النهائية من سيرورة الخروج من الديانة».

ما الذي قاد حديثا إلى هذا؟ كل الكتاب مخصص إلى تحليل هذا الأمر. والمنطلق هو ما حدث بعد السبعينيات من القرن الماضي. والجواب أنه حدثت ثلاث ظواهر: تطور شكل الدولة القومية، تعميق التوجه التاريخي، توسيع تفريد الحق. هي ذي العناصر المنظمة للظرفية غير المسبوقة التي أسسها تحول ما بعد السبعينيات. وهي الظواهر التي عززت الليبرالية الجديدة. وكما

كانت قد ساهمت من قبلُ قوةُ الدولة والإيمان بخصوبة التاريخ في تعزيز الاشتراكية، فإن سيادة الفرد والقول بنهاية سيرورة التاريخ وسيادة الشأن السياسي السيادة الشاملة قد عززوا هيمنة الليبرالية في ما بعد. لكن للانتشاء بانتصار الفرد صاحب الحقوق . والذي عليه مدار الأدلوجة الليبرالية المنتصرة . ثمن. وهذا الثمن يتمثل في أن تكثير وسائل استقلال الفرد وانعتاقه قابَله انعتام الغايات التي يُفترض أنه يسعى إليها. ففي الوقت الذي ازدادت فيه إمكانات الاستقلال الافتراضية، ضاقت فيه إمكانات الاستقلال الواقعية. ولا تشابه بين أزمة الأمس . ظهور الأنظمة الكليانية . وأزمة اليوم – أزمة الديمقراطية – إذ أزمة الأمس نمت عن حنين إلى الماضي – إلى دعامة الديانة التي اختفت – أما أزمة الحاضر، فقد قطعت مع هذا الشكل السابق لاستبدال الديني بالسياسي. لقد ولت الوحدة الروحية إلى الأبد، وترسخت الوحدة السياسية، وما عاد ينظر إلى الدين بديلا عن السياسة. أكثر من هذا، ما عادت تلوح في الأفق توتاليتاريات: ما عاد من وجود لجماهير فاعلة، ولا لإيديولوجيات مجنِّدة، ولا لأحزاب مؤطرة. لقد صار الأوربيون اليوم في حمى من تهديدات عودة الماضي الديني التي كانت تهدد متقدميهم، لكنهم أمسوا أمام مخاطر أخرى: لقد تبخرت أشكال الشأن الجماعي من أفق ما يمكن أن يُفكَّر فيه وما يمكن أن يُعتَقد فيه. لكن كان لهذا التبخر المخلِّص ثمن: «الغياب التام لأي أفق تاريخي». غاب حفظ المسافة عن حاضر مُداهم، وغاب إمكان تصور أي مستقبل واعد، وما عاد التعويلَ إلا على النفس حيث ما بقيت هناك إشارات عن سيرورة تاريخية ممكنة، بل وحتى متخيلة يوطوبية، وانجرف الكل في مهواة سحيقة. أدهى من هذا، صار الكل يتحسس الأزمة، لكن من غير أن يدركها الدرك. وأمسى الكل يغوص بأكمله في حاضر بلا أسئلة وبلا انفتاحات.

ولعل أحد أسباب القلق الذي يستبد اليوم بالمعاصرين انهيار البعد الأخلاقي في العلاقات بين المواطنين لصالح تضخم البعد الحقوقي: لقد أمسى كل تعامل بين أفراد الجماعة مبنيا على الحقوق والواجبات، لا على «الفضائل» و«السجايا»، وكان أن ساد «العدل» وتوارى «الفضل»، وأمسينا نعيش في عالم حقوقي متطلب جدا، ما يفتأ المواطن فيه – وقد نسي الدلالة الأخلاقية لمواطنيته واستحضر فقط الدلالة الحقوقية لها – يصرخ: حقوق، حقوقي.

وبمبعد عن كل تفاؤل وعن كل تشاؤم، وفي مزيج غريب يمكن أن نسميه، تبعا للروائي الفلسطيني إميل حبيبي، «تشاؤل»، يرى غوشيه أنَ الإنسان هو النوع المتناقض بامتياز، بحيث يمسي الشيء ونقيضه بالنسبة إليه صحيحين معا، فمثلما هو قادر على الأفضل، قادر هو على الأسوأ أيضا. ولقد كان أول من أدرك هذا الأمر الفيلسوف الألماني كانط لما تأمل في «اجتماعية الإنسان» وكشف أنّها «اجتماعية غير اجتماعية». ولربما تناسى غوشيه الحكاية الشرقية القديمة التي أوردها الفيلسوف الألماني شوبنهاور: «مثل الإنسان والإنسان كمثل حيوان الشيهم. يحكى أنّه ذات صبيحة باردة، تضامت الشياهم إلى بعضها طلبا للدفء، لكن سرعان ما شعرت بآلام حادة من وخزات مشاوكها، فما لبثت أن ابتعدت عن بعضها. وسرعان ما عاودها الإحساس بالبرد، فكان أن دفعتها غريزتها إلى الالتصاق من جديد، وكان أن عاد الألم، وهكذا أمضت سحابة يومها تجرب الموقف المرار العدة؛ إلى أن أدركت المسافة الوسط، فلزمتها». أكثر من هذا، لم يعلم تدبر الحكيم أبي عبد الله بن بكر في شأن تآلف الناس في زمانه وتخالفهم لما قال: «الناس أشبه شيء يكونوا بالتيوس: إن اجتمعوا تناطحوا، وإن افترقوا تصايحوا».

تلك على وجه الجملة هي معاطب زماننا بعد أن خرجت المجتمعات الغربية من الديانة خروجها المعلوم. لكن لا توجد أية نزعة حنينية إلى الماضي عند مارسيل غوشيه. فلا هو يدعو إلى العودة إلى الديانة بعد الخروج عنها. ولا هو ينادي بتسحير العالم الجديد بعد انبطال سحر العالم القديم. بل بالعكس يقول بالذهاب بإبطال السحر إلى آخر مداه، ويرتئي تقدير نوع الحرية الذي يمنحنا انقشاع السحر إياه. ويجد في ذلك ممارسة للحرية لا سابق لها في تاريخ البشرية.

وبعد، حال المحدثين أشبه شيء يكون بحال البحارة البرتغاليين في بداية عهد الحداثة، كانوا لا يولون شطر وجههم إلى ما كان يدعوه العرب القدامى «بحر الظلمات» إلا بعد أن يودعوا أهلهم كأنه الوداع الأخير، وذلك بعد أن أصروا على الإقبال على مغامرة استهوتهم لكنهم لا يعرفون مآلها، وفي الوقت نفسه لا يشعرون بالندم على إقبالهم على ما أقبلوا عليه، فكذلك هو حال مغامرة الحداثة بالخروج من الديانة والانغمار في عالم مجهول..

عنوان الكتاب: العالم الجديد
سلسلة الكتاب: صعود الديمقراطية (الجزء الرابع)
المؤلف: مارسيل غوشيه
لغة الكتاب: الفرنسية
سنة الصدور: ٢٠١٧
دار النشر: منشورات غاليمار
عدد الصفحات: ٧٤٩

*** أكاديمي مغربي**

مذكرات كاستوربا الغاندي السرية للكاتبة الهندية نيليما داليميا

ويلابوراتو عبد الكبير *

قبل نصف قرن تقريبا حين كنت طالبا في المدرسة الابتدائية كان لنا كتاب إضافي بحجم صغير للقراءة فقط خارج المنهج الدراسي والامتحان. كان ذلك الكتاب سيرة حياة «كاستوربا الغاندي» زوجة «موهان داس كارم تشند الغاندي» صاحب مبادئ اللاعنف والقائد الكبير الذي كان في مقدمة حركة استقلال بلادنا ضد الاستعمار البريطاني، وصورة كاستوربا الأم المتوترة في الكتاب لا تزال مجسدة في ذهني لما فوجئت بلقاء ابنها «هاري لال» في إحدى محطات القطار وهي ترافق زوجها الغاندي في سفره للمشاركة في اجتماع يعقد بمناسبة مظاهرة احتجاجية ضد قوات الاستعمار البريطاني. كان بين «هاري لال» ووالده الغاندي خلافات حادة. هاري لال لم يستطع أن يتفق مع مبادئ الغاندي التي يحاول فرضها إجبارا على جميع أعضاء أسرته. تمرد على سلطة الغاندي الأبوية في بيت الطاعة. أراد قصاصا من أوامره ونواهيه وتعاليمه المرهقة التي يختنق بها داخل البيت، صار عصيا للغاندي بل ترك الديانة الهندوسية التي تنتمي لها أسرة الغاندي وتجرأ لاعتناق الإسلام وبدل اسمه «عبد الله الغاندي». كان الغاندي الوالد يدري أن تبديل ديانة ولده لم يكن من صميم قلبه بل مشاغبة احتجاجية فقط، ولذلك حذر المسلمين في حزب «رابطة المسلمين» بقيادة محمد على الجناح، الذين احتفلوا بهذا الحدث بعقد حفلات استقبال لابنه المتمرد؛ حذرهم أن لا يقعوا في فخه.. بين الزوج وابنه ظلت الأم كسمكة رماها البحر إلى الشاطئ ترتجف بقلق بالغ. الأم على كل حال أم رؤوم نحو ابنها. و«هاري لال» كان يحب والدته حبا جما ولو كان يكره والده، ولذا هرول إلى المحطة لإلقاء نظر على والدته العزيزة حين عرف أن القطار يمر بتلك المحطة. وقف بمسافة من شباك القطار وهو يظل ينظر إلى «كاستوربا» حيث تبادلت النظر إليه صامتة، أمّا الغاندي الوالد فلم يلتفت إلى ابنه «الضال» رغم الإشارة من كاستوربا إليه. اغرورقت عينا تلك الأم. حين قرأت هذا المشهد رأيت بحرا زاخرا في أعماق قلب كاستوربا المتوتر الذي يتذبذب بين ابنها الحبيب وزوجها المحترم.

وبعد تجاوز مرحلة المراهقة قرأت لغاندي وقرأت عنه كثيرا. قرأت عددًا من سيرة حياته، منها ما كتبه «بيارى لال» و«ديشاي» وحفيده «راج موهان الغاندي» ومن الذين أضافوا إلى مكتبة السيرة تلك روسكين بوند (Ruskin Bond) و«ساروجيني نايدو» و«دومينك لابير (Dominique Lapierre) و«خوشوانت سينغ» و«نايبول» (V. S. Naipaul). كتب مكتوبة من وجهات نظر مختلفة شاملة انتقادية. ولكن قلما ظهرت فيها صورة زوجته كاستوربا، الظل الذي لازمه طول حياته، المرأة المتوترة التي التصقت بذهني فترة المراهقة، والتي تحملت كثيرا في حياتها الزوجية، وقرأت أيضًا كتبا كتبها الغاندي نفسه مما أبرز عظمته الشخصية ومبادئه السامية ومواقفه الصارمة، وكان منها ما يكشف عن بعض غرابة أطواره. فمثلا في آخر حياته الزوجية بعد أن أنجبت له زوجته أولادًا نراه ينزوي بعيدا عن العلاقات الزوجية بهجر زوجته كاستوربا كالمعلقة في مضجعها محاولا أن يكبت شهواته الجنسية. وفي التاريخ عظماء كثيرون فشلوا في حياتهم الزوجية مثل تولستوي وسقراط، فهل كان الغاندي راسبا في حياته الزوجية؟ وكل إنسان ملعون بضعف ما. هل كان الغاندي العظيم خاليا من نقاط الضعف؟ أين مكان «كاستوربا» الحقيقي في حياة الغاندي؟ هل كانت تتمتع بشخصية قوية، أم كانت مجرد ظل تلازم زوجها الغاندي؟ أسئلة تدور في خلدنا حين نقرأ عن الغاندي في كتب كتبها رجال. وكلما أقرأها كنت أبحث فيها عن «كاستوربا» ولكن لم يحالفني الحظ بها حتى الآن.

وفي شهر مارس الماضي حين قضيت في غرفة عناية القلوب المركزة بعد عملية «ترقيع أوعية القلب» (Angioplasty) زارتني «كاستوربا» في شكل كتاب كتبته كاتبة هندية يختلف بعدة وجوه عن الكتب التي كتبها رجال عن الغاندي «العظيم». فكما لكل عملة وجهان لكل شخص وجهان. ووجه الغاندي الآخر المتسم بالسلطة الأبوية يتضح جليا في كتاب الكاتبة «نيليما داليما آدهار بعنوان «مذكرات كاستوربا السرية». لم يكن خافيا على أحد أن كاستوربا لم تكتب مذكرات في حياتها. إذن هل هذا كتاب قصة خيالية؟ نعم ولكن إلى حد ما فقط. وإلى حد كبير هو مبني على حقائق تاريخية تدور حول أشخاص عاشوا تلك الحقبة الحاسمة. الجهد الجهيد الذي بذلته الكاتبة في البحث عن المعلومات واضح وضوح الشمس في كل صفحة من صفحات الكتاب. إنّما اختارت نسيجا خاصا لسرد سيرة امرأة أهملها الكُتّاب الرجال.

الكاتبة نيليما آدهار هي ابنة الصناعي الكبير آر. ك. داليما الراحل. منذ أن نشرت في عام ٢٠٠٣ كتابها الأول عن والدها بعنوان «آر. ك. داليما حياته وزمانه» تمكنت من الاستيلاء على مكانة خاصة بها في قائمة مؤلفي الكتب الأكثر مبيعا. وقرابة صلتها بداليما كابنة لم تمنعها من الكشف عن بعض الجوانب السرية في حياة والدها. وفي عام ٢٠٠٧ أضافت لونا آخرا إلى عالم كتابتها برواية موسومة بـ «تجّار الموت» هكذا تنوعت كتابتها تجددًا وتوسعت قاعدة قرائها، خريجة إحدى الكليات في دلهي بتخصص في موضوع «الشخصية» التحقت بجامعة دلهي كمدرسة سيكولوجية، كان علم النفس مفتاحا في يدها للخوض في أعماق نفوس شخصيات تاريخية هامة، تقول نيليما إنّها حاولت أن تكتشف شخصية تاريخية نسوية قوية فلم تجد إلا كاستوبا. هي شخصية منسية يجب إخراجها من غيبوبة الحس الجماعي الهندي. قبل أن تبدأ الكتابة قامت ببحث طال مدة سنتين في جمع المعلومات المتعلقة بسيرة المذكورة. ولكن المصادر الوثائقية التي تتعلق بسيرة حياة كاستوربا كانت نادرة جدا. فم تكن أمام نيليما إلا المعلومات الشفوية المتوفرة لدى الذين عاشوا أحداث الحركة الاستقلالية. وكان من أهم تلك المصادر آرون الغاندي حفيد كاستوربا «وحفيدتها» سوناندا الغاندي. واعتمدت أيضا على كتاب الغاندي نفسه «تجاربي في البحث عن الحقيقة» الذي سبق ذكره أعلاه. تقول نيليما إنّ اعترافات الغاندي الصريحة في ذلك الكتاب ساعدتها كثيرا في تصوير شخصية كاستوربا في إطارها الصحيح بدون أي حجاب، وحيث إنّ أسرة الغاندي تعتقد أن أي شيء صريح وغير سري ليس فيه ذنب، دفعها بجرأة في

الكشف عن بعض البواطن من سيرة تلك المرأة الأسطورية. وبما أنّ السيكولوجيا كان موضوعها في الجامعة وأنّ مراقبة الناس كان من هوايتها المفضلة، كان طريق الدخول إلى تحليل نفسيات كاستوربا سهلا لها جدا. تقول الكاتبة إنّ جميع المعلومات التاريخية والأحداث والأشخاص المصورة في الكتاب صحيحة وحقيقية. «لما دخلتْ كاستوربا في مخيلتي ودخلتُ أنا في أعماقها، تشكلت في قالب متعدد الأبعاد كما شاءت هي وكما شئت أنا.» ورب قائل يقول لو أن كاستوربا كتبت مذكراتها لما كانت إلا على هذه الشاكلة. «إن كاستوربا التي تخصني لا ترغب أن تحجز مقعدا لها بقاعة المشاهير الجوفاء كما هو حال زوجها، إنّما تحاول أن تؤنسن زوجها وتحصل على قطعة من السماء التي حرمها منها الرجال الذين كتبوا التاريخ». هكذا تبرر الكاتبة نيليما موقفها من تصوير كاستوربا حين جعلتها تكتب مذكراتها السرية.

يبدأ الكتاب من مشهد ترقد فيه كاستوربا على سرير موتها ثم تتنقل في شكل رائع إلى طفولتها وحفلة زواجها المبكر المفعم بالرومانسية ثم إلى حياتها الزوجية الخشنة وأمومتها المرهقة. حين تزوجها الغاندي كان عمرها ثلاث عشرة سنة فقط؛ كانت ضحية التقاليد الفاسدة في تلك الزمان. ماذا كان مكانها في بيت الغاندي؟ فلنقرأ ما تكتب كاستوربا في مذكراتها:

«تلك الليلة تجرأت أن أتحدث مع موهان داس الغاندي: أنت مندهش بما حصلت من التربية الإنجليزية، لا يوجد عندك أي احترام نحو إخوتك وعائلتك، هل لي أن أذكرك بواجباتك نحو عمّيك. هل نسيتَ أن عليهما الآن ديونا بالغة في حساب تكاليفك الدراسية في لندن؟ وقد أصبحا الآن عاطلين. هل عليك مساعدتهما الآن؟ أنت محب لذاتك فقط. موهان داس كيف أفهمك؟ لا أريد أن أتمتع بالتعليم. خلي سبيلي. قلتُ له الكلام الذي أردت أن أقوله..... بالنسبة لـ «موهان داس» كنتُ مجرد ألعوبة في يديه، ألعوبة حيوية يلعب بها كما يشاء، وبعدها سأعود إلى حالتي كجارية له ليست لها أي حرية فكر ولا احتجاج. ذات صباح كنت أرافق «بوتلي باي» في زيارتها المعتادة إلى المعبد، ومن داخلي ارتفعت قوة تحدٍّ، وكنتُ لم أستأذن لذلك من الغاندي، قد توقفت عن ذلك منذ فترة، حاولتُ أن أدفع نفسي عن هيمنته المتغطرسة المفروضة علي. طبعا كما توقعتُ، انفجر غضبا. كانت نتيجته الحتمية مزيدا من القيود المتشددة عليّ. لكن بلا تأخير أدرك أن كاستوربا لا تخضع له بسهولة. وفي النهاية ترك إصراره وتصالح معي وعادت الأمور إلى حالتها الطبيعية.»

وفي جنوب إفريقيا خلال نضال الغاندي على سياسة سلطة البيض العرقية ضد المواطنين السود رغب أن تقف زوجته بجنبه احتجاجا على تلك القوانين الجائرة التي تفرق الناس بناء على اللون كما تمنى أن تكون مرافقة معه في السجون. «لم يكن

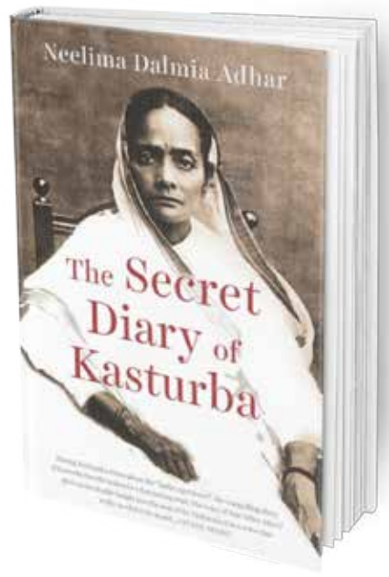

أذنا صاغية لما أقول له، كل محاجاتي ضرب بها عرض الحائط، قائلا لي: قد حان الوقت أن تنهض النسوة وتثور على السلطة التي تهينهن وأولادهن، وعليهن أن يتعرضن أنفسهن للاعتقال، إن واجهت يا كاستوربا أي معاملة سيئة من سلطة الزندان لك أن تضربي عن الطعام حتى الموت، فإن مت في تلك الظروف في السجن سأعبدك كآلهة قديسة». فلم يكن لها ملجأ إلا أن تقف واجمة أمامه. وكان للغاندي مبادئ خاصة في تربية أولاده. التزم بأن تتم تربيتهم داخل البيت دون الذهاب إلى المدارس العامة، وهذا الموقف هو الذي أدى بولده الكبير هاري لال إلى التمرد عليه والخروج من البيت في النهاية. حاولت كاستوربا إقناع زوجها بالنتائج الوخيمة التي قد تترتب على هذا الإهمال من جانبه نحو أولاده حتى أظهرت غضبها نحوه ولكن بدون جدوى. ونرى الغاندي نفسه يعبر عن ضميره المذنب فيما بعد في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه هكذا: لا أدري أي شر يسكن في داخلي. وفي أعماقي وحش يكلف الناس ما لا طاقة لهم به لأفراحي». عاشت كاستوربا بقلب مجروح بين أولادها المقيدة حريتهم تحت سلطة والدهم الاستبدادية.

كانت للغاندي علاقات مع رجال ونسوان، أثار بعضها زوبعات، خاصة علاقاته مع «سارالا ديوي» أحد تلامذته. لم تحاول نيليما إدلاء سدال على هذه الوقائع في مذكرات كاستوربا؛ بل أوردتها كلها بصراحة وتفصيل.

ماذا كان دور كاستوربا وموقفها كوالدة من ولدها الكبير «هاري لال» المنشق عن والده الغاندي. كتبت كاستوربا هذا الجزء من مذكراتها بعبرات عينيها؛ وتنكسر القلوب الرقيقة التي تقرؤها. ومرة ثانية التقيت بهاري لال في «مذكرات كاستوربا» بعد أكثر من نصف قرن من قراءة كتاب عن كاستوربا المخصص لدراستنا الابتدائية. وجدت الأم نفس الأم المتوترة بين ولدها ووالده، القطبين الذين لا يلتقيان أبدا. ولدها كان صارما في مواقفه تماما كوالده. نراه يرفض استلام رسالة باسم «هاري لال» من ساعي البريد قائلا إن اسمه عبد الله ليس هاري لال. حاولت كاستوربا قدر وسعها الحفاظ على التوازن بين ولدها المتمرد ووالده المستبد. وجهت التهمة نحو الغاندي كما اتهمت نفسها في انحراف مصير ولدها. بالرغم من احترام كاستوربا الشديد لزوجها الغاندي والتزامها بالقضايا التي رفعها، لم تتردد أن تصف بعض مواقفه في شأن ابنه هاري لال بأنها همجية وظالمة. «كيف يستطيع لوالد أن يعامل ولده بهذا الفرط من التوحش والعنف بينما ينشط نفوس آلاف من الجمهور برسالته السلمية ومبادئه اللاعنفية؟ «تسأل كاستوربا في مذكراتها ولكن في نهاية المطاف تضطر إلى أن تخضع تحت قدميه كأي امرأة تقليدية في الهند. فنجد مسرحية «راما» وزوجته المهملة «سيتا» في ملحمة «رامايانا» تتكرر مرة أخرى في لوحة أسرة الغاندي.

كان الغاندي يقول بالعلاج الطبيعي ضد استعمال الأدوية الحديثة، وفي عام ١٩٤٤ عندما كانت كاستوربا على سرير الموت حاول هاري لال أن يعطيها دواء «بينسلين» لتسكين آلامها ولكن الغاندي لم يسمح به. كان موقفه صارما في مثل هذه الأمور.

تقول الكاتبة: «كاستوربا تعيش وتتنفس وتتحدث من خلال هذه الصفحات تماما مثلي أنا لو كنت مكانها. أرجو أن يتسلل معي كل واحد من الجيل الناشئ الهندي وباقي العالم إلى هذا المكان وأن نعيش من جديد حكاية هذه الظاهرة النسوية الأسطورية التي تتجاوز جميع الحدود وتبعث من جديد في صفحات مذكراتها.»

هل يقلل هذا الكتاب من قامة شخصية الغاندي ومكانه الفريد في تاريخ حركة استقلال الهند؟ أعتقد أن الغاندي رغم كل ضعف إنساني يعاني منه، سيبقى عملاقا ونبراسا يلقى الضوء على درب جيل المستقبل في الهند. ولأي أحد أن ينتقد موقفه من فرض القيود المشددة على عائلته، وتحوله إلى العزوبية بالرغم من زواجه بكاستوربا والتزامه بالعلاج الطبيعي بلا هوادة، وكراهيته للصناعات الحديثة، لكن سياساته المبنية على القيم ترفعه إلى مقام سام بلا مساو له في عصرنا هذا. إنّ الهند المعاصرة المليئة بالكراهية الدينية والعصبية العمياء تبحث عن غانديها من جديد.

اسم الكتاب: Secret Diary of Kasturba
اسم المؤلفة: Neelima Adhar Dalmia
عدد الصفحات: ٣٩٣
لغة الكتاب: الإنجليزية
الناشر: Westland
سنة النشر ٢٠١٦

*** مستعرب وباحث هندي**

الجنة الآن: قصة اليوتوبيا الأميركية لكريس جانينغ

محمد السماك *

يحاول الكتاب أن يجيب على السؤال التالي: ما هو دور المُهاجرين الأوروبيين في صناعة الشخصية الأميركية؟ وكيف أثرت الحركات الطوباوية التي استحدثوها في صناعة هذه الشخصية وبلورتها؟

ولعلَّ من أبرز القواعد التي أكدها المؤلف هي فشل الحركات الطوباوية التي اتخذت من «الشيوعية» أساساً لها، ونجاح الحركات التي قامت على أساس الدين.

روى المؤرخ الأميركي كريس جانينغ في كتابه الجديد كيف ولدت الحركات الطوباوية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلاديين. وحدد هدفها المشترك رغم تباين مقارباتها ومبادئها. وقال إن الهدف هو إقامة المجتمع المثالي. وهذا ما يفسر عنوان الكتاب: « الجنة الآن: قصة الطوباوية الأميركية».

يقول المؤلف إنه منذ عام ١٨٠٠ عرف المجتمع الأميركي أكثر من مائة جماعة. قام بعضها على العلمانية والشيوعية، وقام بعضها الآخر على المسيحية الإنجيلية.

من أبرز الجماعات التي قامت على اللادين، جماعة « أونيدا» التي ظهرت أولاً في نيويورك.

وبموجب تعاليمها جعلت كل شيء مشتركاً بين أبناء الجماعة؛ الأملاك.. والنساء.

وقد أسس هذه الجماعة روبرت أونيدا وهو من أصل بريطاني كان يملك طاحونة للقمح، قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة. وفي عام ١٨٢٥ اشترى قطعة من الأرض في ولاية إنديانا، وأقام عليها مزرعة ومصنعاً ومكتبة عامة، وحوّلها إلى موقع لاستقطاب المزارعين والفنانين والمثقفين. وكان يقدم لهم أدوات العمل والطعام مجاناً.. وهو أول من أقام مدارس مُختلطة للبنات والصبيان، وشجع على الدراسات والأبحاث العلمية. ولكن في مجتمع رأسمالي بامتياز كالمجتمع الأميركي، بدت هذه الجماعة وكأنَّها خارج المُجتمع أو خارج سياق الحياة العامة، إذ عاشت الطوباوية الشيوعية التي سرعان ما تبددت وزالت وكأنها لم تكن. ولأن الجماعة متعددة الآراء والعقائد، فقد انقسمت على نفسها، وانفرط عقدها في عام ١٨٢٧.

ومن الجماعات التي قامت على الدين المسيحي أيضاً « جماعة الهزازون» أو المرتعشون، والذين كانوا يؤدون صلواتهم على طريقة الدراويش بالحركات والاهتزازات الجسدية. وقد أسست هذه الحركة مهاجرة من مانشستر في بريطانيا تدعى آن لي، وكانت تتبع كنيسة الكويكرز، إلا أنَّها لم تنجب إلا أطفالاً ميتين.. أو أطفالاً لم تكتب لهم الحياة. ولذلك شكلت جماعتها على أساس تحريم الجنس ليوفروا على المرأة مُعاناة الحمل والإنجاب. وقد ازدهرت هذه الجماعة وانتشرت في ثماني ولايات أميركية لما عُرف عن أعضائها من استقامة في التَّعامل مع النَّاس. وكانوا يمارسون مراسم تعبدية راقصة «للذوبان في الروح القدس»!!

ومن تلك الجماعات كذلك جماعة أسسها مُهاجر من أصل فرنسي يدعى شارل فورنييه، وقد حملت الجماعة اسمه. ويبدو أن الرجل كان محباً للحياة والمرح، حتى أن هذه المفاهيم شكلت أساس تكوين جماعته وفلسفتها. وكان الهدف الأساس في تلك الفلسفة تحرير الناس من غرائزهم بحيث يتمتع كل واحد منهم، وخاصة النساء، بحياة ملؤها الفرح والسعادة الحسية.

ومن دون «تقديس» العلاقات الجنسية، كانت رسالته تقول إن الحياة الجيدة هي الحياة المريحة، وليست حياة الكفاح والعمل والجد والتعب، وهي حركة فكرية سابقة لفلسفة «الوجودية» التي قال بها الفيلسوف الفرنسي سارتر في القرن العشرين.

ومنها كذلك «جماعة الإيكاروسيون»، نسبة إلى بطل الأسطورة اليونانية أيكاروس. وتقول الأسطورة إن إيكاروس هذا، هرب من جزيرة كريت بواسطة أجنحة من الريش والشمع. وكان أبوه قد نصحه بألا يطير في ضوء الشمس. ولكنه لم يسمع النصحية، فذاب الشمع وسقط في البحر. وكان مؤسس هذه الحركة شيوعي فرنسي هاجر إلى الولايات المتحدة ويدعى إتيان كابيه.

ولا شك في أن أهم الجماعات الدينية الطوباوية وأكثرها نجاحاً هي جماعة «المسيحانية الصهيونية» المستمرة بقوة

حتى اليوم، والتي تدّعي أنها تضم ٧٠ مليون أميركي كان من بينهم الرئيس الأسبق رونالد ريغان.

ويعتبر سايروس سكوفيلد، الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة. وهو يستمد تعاليمه من قس إيرلندي يدعى جون نلسون داربي من كنيسة إنجلترا. وتقوم هذه التعاليم على الاعتقاد بأنَّ لله برنامجين وشعبين يتعامل معهما، وأن إسرائيل هي مملكة الله على الأرض، وأنَّ الكنيسة المسيحية هي مملكة الله في السماء. في العام ١٩٠٩ نشر سكوفيلد «إنجيله» الذي يفلسف فيه هذه المعتقدات وتولت طبعه Oxford University Press Of New York.

كان القس وليم بلاكستون (١٨٤١-١٩٣٥م) أبرز دعاة العودة اليهودية إلى فلسطين، وكان أول من مارس الضغط السياسي في الولايات المتحدة من أجل تسريع وتسهيل هذه العودة. وكان أول من بشر من خلال كتابه «المسيح آت Jesus is Coming» الذي صدر في العام ١٨٧٨م، وذلك من خلال دعوته إلى الربط بين عودة اليهود إلى فلسطين وعودة المسيح إلى الأرض.

وفي العام ذاته الذي صدر فيه الكتاب، أسس بلاكستون منظمة تدعى «البعثة العبرية من أجل إسرائيل Herbew Mission on Behalf of Israel » ولا تزال هذه المنظمة مستمرة في مهمتها حتى اليوم باسم جديد هو « الزمالة اليسوعية الأميركية American Messianic Fellowship »، وتعتبر هذه المنظمة حتى اليوم قلب جهاز الضغط (Lobby) الصهيوني في الولايات المتحدة.

في المرحلة الأولى من هجرتهم إلى أميركا، اعتبر هؤلاء الإنجيليون العالم الجديد بمثابة كنعان الجديدة New Canaan، واعتبروا ملك بريطانيا جميس الأول الذي اضطهدهم بمثابة فرعون الجديد، واعتبروا إنجلترا التي هربوا منها بمثابة مصر، واعتبروا الهنود الحُمر في أميركا بمثابة الأسباط العشرة المفقودة من بني إسرائيل، حتى أنه عندما تاهت إحدى الجماعات البروتستنتية من طائفة المورمون في الصحراء الأميركية قبل أن تصل إلى ولاية يوتاه وتستقر فيها، شبهت عملية التيه بتلك التي تعرّض لها بنو

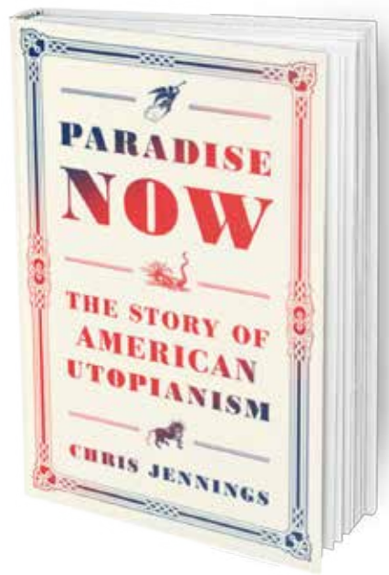

إسرائيل في صحراء سيناء، ولذلك أطلقت هذه الجماعة على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم نهر باشان.

وقد بلغ تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل في أميركا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون اتخاذ رمز لأميركا يمثل أبناء إسرائيل تظللهم غيمة في النهار، وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر، وذلك توافقاً مع ما يتضمنه سفر الخروج.

ولقد نشرت الكاتبة الأميركية غريس هالسل Grace halsell كتابين حول هذه الجماعة. الكتاب الأول بعنوان «النبوءة والسياسة Prophecy and politics». وفي مقدمتها لهذا الكتاب تقول ليندسي:

« قرأت كتاب (آخر أعظم كرة أرضية) الذي بيع منه حوالي ١٨ مليون نسخة وظل على رأس لائحة الكتب الأكثر مبيعاً خلال السبعينيات، وكان يباع منه أكثر من أي كتاب آخر باستثناء الكتاب المُقدس. في هذا الكتاب وفي أربعة كتب أخرى، بما فيها كتاب (العالم الجديد)، يقول المؤلف هول ليندسي «إن الله قضى علينا أن نخوض غمار حرب نووية (هرمجيدون)».

وكان رونالد ريغان واحداً من الذين قرأوا كتاب (آخر أعظم كرة أرضية)، فهل هو مثل لندسي يؤمن أنَّ الله قد قضى أن على هذا الجيل بالتحديد الذي يعيش في الوقت الحاضر أن يُدمر الكرة الأرضية؟ وهل بدأنا عملية العد العكسي للقضاء على أنفسنا؟

في وقت مُبكر من عام ١٩٨٦ أصبحت ليبيا العدو الدولي الأول لرونالد ريغان، فهل يعود تفسير ذلك إلى نبوءة توراتية؟ استناداً إلى جيمس ميلز الرئيس السابق لمجلس الشيوخ في ولاية كاليفورنيا فإن ريغان كره ليبيا لأنّه رأى أنّ ليبيا هي واحدة من أعداء إسرائيل الذين ذكرتهم النبوءات، وبالتالي فإنَّها هي عدو لله.

وفي عشاء أقيم في عام ١٩٧١ في مدينة سكرمنتو في كاليفورنيا (حيث كان ريغان في ذلك الوقت حاكماً) تكريماً لجيمس ميلز، بدأ ريغان فجأة يتحدث إلى ميلز الذي كان يجلس إلى جانبه حول النبوءات الإنجيلية وحول حتمية مُقاتلتنا للاتحاد السوفياتي (يأجوج ومأجوج في الكتاب المقدس). ويذكر ميلز هذا الحادث في عدد شهر أغسطس ١٩٨٥ من مجلة سان دييغو ويقول إن ريغان أخبره بتأكيد جازم: في الفصل ٣٨ من إصحاح حزقيال هناك نص يقول إنَّ أرض إسرائيل سوف تتعرض إلى هجوم تشنه عليها جيوش تابعة إلى دول لا تؤمن بالله، وتقول إنَّ ليبيا ستكون من بينهم. هل تفهم ماذا يعني ذلك؟ لقد أصبحت ليبيا الآن شيوعية وهذا مؤشر إلى أن هرمجيدون ليس ببعيد.

إنَّ السجلات تشير إلى أن ريغان وعلى مدى سنوات عديدة أطلق تصريحات مُماثلة بشأن مجابهته لقوى شيطانية في هرمجيدون نووية. ويقول الباحثان لاري جونز من نيويورك واندرو لانغ في المعهد المسيحي الإنجيلي في مدينة واشنطن إن دراساتهما تقنعهما بأن ريغان قبل في الماضي تفسيراً توراتياً لنبوءة تقول بأن هرمجيدون نووية هي أمر لا يُمكن تجنبه وأنه حتى عام ١٩٨٦ ربما يكون ريغان قد استمر على هذا الاعتقاد. إن الموضوع مُثير لدرجة أنني أخصص فصلاً خاصاً عن ريغان وإيمانه.

إنَّ معظم محطات التلفزيون الرئيسية الإنجليزية تعلم ما قاله هول ليندسي في كتبه المشهورة وهو أن هذه الكرة الأرضية سوف تصبح في حياتنا آخر كرة أرضية عظيمة. إنَّ الله يعرف أن ذلك سيحدث، إنَّه يعرف ذلك منذ البداية الأولى، ولكن الله أخفى مخططه عن بلايين البشر الذين عاشوا قبلنا، أما الآن واستناداً إلى لندسي فإنَّ الله يكشف عن مخططه إلى لندسي وإلى الآخرين مثل جيري فولويل وجيمي

سواغارت وبات روبرتسون الذين يُبشرون بنظرية هرمجيدون.

إنَّ نظام الإيمان عند لندسي وفولويل وسواغارت وروبرتسون وعند حوالي ٤٠ مليون إنجيلي أصولي، يتمركز حول أرض صهيون الإنجيلية، وحول دولة إسرائيل الصهيونية الحديثة التي يعتبرونها واحدة ونفس الشيء».

وفي الكتاب الثاني وعنوانه «يد الله Forcing God's hand »، تتحدث الكاتبة عن مجموعة من الحركات الدينية التي انبثقت عن هذا الفكر الديني الإنجيلي المتصهين والتي وردت أساساً مع المهاجرين الأوروبيين. وتنقل عن أحد الإعلاميين الأميركيين المتخصصين في شؤون هذه الحركات الدينية دايل كراولي قوله : «يوجد في الولايات المتحدة حوالي ٨٠٠ كاهن أصولي يقدم معظمهم برامج عبر ألف محطة راديو ومائة محطة تلفزة مسيحية والأكثرية الساحقة من هؤلاء من المؤمنين بـ«الحتمية القدَرية».

باختصار فإنَّ مُعظم المُبشرين الذين يطلّون على النَّاس من الإذاعات يروّجون لعقيدة سكوفيلد. فالحتمية القدرية تمثل ما بين ١٥ إلى ٢٠ بالمائة من جميع المسيحيين التابعين لكنيسة العنصرية «بنتوكوستال». وبالإجمال فإني أقدّر عددهم بين ٢٥ و٣٠ مليوناً، وهم في تزايد مُستمر.

تقوم مؤسسات كبيرة ونافذة بتدريس هذه العقيدة بما فيها كلية اللاهوت في دالاس - حيث درس هول ليندسي- ومؤسسة مودي الإنجيلية في شيكاغو، والكلية الإنجيلية في فيلادلفيا والمعهد الإنجيلي في لوس أنجلوس، وحوالي ٢٠٠ كلية ومعهد آخر.

في عام ١٩٩٨ بلغ عدد طلاب المعاهد الإنجيلية أكثر من مائة ألف طالب تتراوح نسبة القدريين منهم ومن أساتذتهم معاً ما بين ٨٠ و٩٠ بالمائة.

وعندما يتخرّج هؤلاء الطلاب يتبوؤن مراكز كهنوتية ويبشّرون في كنائسهم بعقيدة سكوفيلد، أو يدرسونها في مدارسهم الإنجيلية الخاصة. فمن بين الأربعة آلاف إنجيلي قدري الذين يشتركون في المؤتمر السنوي الوطني للمذيعين الدينيين، يوجد ثلاثة آلاف على الأقل من القدريين الذين يتقبلون بثقة نظرية الكارثة المُقبلة، ولكنهم لا يُعانون ولو للحظة واحدة بسبب نشوتهم الدينية المُبكرة «.

وفي خاتمة كتابها تقول المؤلفة هالسل: «هؤلاء الذين يبشرون بعقيدة هرمجيدون هم لا ساميون، فجيري فولويل وغيره من القدريين يبدون حباً جامحاً لإسرائيل. حتى الإسرائيليين لا يعلنون بصراحة أكثر عن تأييدهم للدولة اليهودية بلا قيد أو شرط، غير أنَّ دعمهم لإسرائيل لا ينطلق من شعور بالذنب بسبب اضطهاد سابق ارتكبوه، أو حتى من تعاطف مع اليهود الذين عانوا خلال المحرقة -الهولوكوست- إنما ينطلق دعمهم من قاعدة أخرى وهي أنَّهم يُريدون أن تقوم إسرائيل «في مكان» ليكون هذا المكان محطة نزول المسيح في مجيئه الثاني».

وتلتقي المؤلفة غريس هالسل في كتابيْها «النبوءة والسياسة» و«يد الله» مع كريس جانينغ مؤلف كتاب قصة اليوتوبيا الأميركية في أن هذه الحركات بكل أدبياتها الدينية وفدت إلى الولايات المتحدة مع المُهاجرين الأوروبيين الأوائل، خاصة خلال فترة الحروب الدينية الأوروبية بين الكاثوليك والإنجيليين.

باستثناء الحركة المسيحانية الصهيونية وهي الحركة الأهم والأوسع انتشاراً حتى اليوم في الولايات المتحدة، لم تعش أي من تلك الحركات طويلاً. ولكن امتداداتها لا تزال مستمرة حتى اليوم. ولعل من أبرز مظاهر ذلك أنَّ حركة تحرير المرأة بدأت من هناك، وتحديداً من المهاجر الفرنسي فورنييه نفسه الذي رفع شعار «إن أي مُجتمع لا يُمكن أن يتحسن ما لم تتحسن أوضاع المرأة»، وكتب في عام ١٨٠٨ يقول : « إن أفضل الدول هي تلك التي تسمح للمرأة بالتمتع بأكبر قدر من الحرية». في ذلك الوقت كان هذا القول ثورياً على تقاليد المجتمع الأميركي وعلى مفاهيمه الدينية الإنجيلية المحافظة. إلا أن المرأة عنده، كانت في علاقتها مع الرجل، وفي حريتها الشخصية، الركن الأساس في الطوباوية المنشودة !!

وإذا كانت الولايات المتحدة بدأت البحث عن الطوباوية منذ القرن التاسع عشر من خلال تطلعات المهاجرين الأوروبيين للتحرر من القيود التي عانوا منها في بلادهم، فإن جماعات عديدة أخرى من العالم اليوم، بما في ذلك العالم الإسلامي، تبحث هي الأخرى عن طوباوية تتوسل الدين أحياناً، والتحرر من القيود الاجتماعية والفكرية التي تفرض عليها باسم الدين أحياناً أخرى.

فالطوباوية من حيث هي تجسيد للمُجتمع المثالي أو للمجتمع الأمثل، هي سراب غير قابل للتحقيق والإمساك، كما يؤكد المؤلف كريس جانينغ نفسه. وذلك لسبب رئيس واحد. وهو أنه لا يوجد أساساً مجتمع مثالي. والسعي وراءه هو سعي وراء الفراغ، أو اللاشيء. وهو لا يُؤدي إلى الفشل وإلى خيبة الأمل فقط، ولكنه يؤدي إلى أكثر من ذلك، إلى ارتكاب جرائم جماعية وإلى انهيار خلقي ومعنوي خطير. ولقد أثبت التاريخ ذلك وتثبته وقائع الحاضر اليوم أيضاً.

اسم الكتاب: الجنة الآن: قصة اليوتوبيا الأميركية

Paradise Now : The Story Of American Utoprianism

اسم المؤلف: كريس جانينغ Chris Jennings

اسم الناشر: راندوم هاوس Random House

تاريخ النشر: ٢٠١٦

عدد الصفحات: ٤٨٨

*** مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي**

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤.٣١ - ٢٤٦٤٤.٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦.٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net - al.tafahoom@gmail.com - tasamoh@gmail.com